مقدمة في

أسباب إختلاف المسلمين وتفرقهم

تأليف :

د.طارق عبد الحليم

د محمد العبدة

قال تعالى :

{ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }

(الأنعام 153)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ذَرُونِى مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ)

(رواه مسلم)

(إذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا، بل الواقع انه ما من بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو موجود اليوم)

(ولي الله الدهلوي)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونصلي وسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحبه وبعد

فإن المتأمل في واقعنا الإسلامي المعاصر يجد نفسه - رغماً عنه - نهبا لمشاعر عديدة تهديه الى البشاشة تارة، وتدفعه الى الحزن والألم تارات .

فهنالك صحوة إسلامية لاشك فيها ، ليس هنالك أدل عليها من تسارع ضربات الطغاة للمسلمين في كل مكان، وازديادها وكثافتها ... فانه كلما أزداد الفعل كلما أزداد ردّه بما يساويه ... هذا في عالم المادة أما في عالم العقيدة، فانه كلما ازداد الفعل، كلما تضاعف رده أضعافاً كثيرة. وفي عالم المادة أيضاً، قد يوقف رد الفعل ذلك الفعل ويمنعه، أما في عالم العقيدة فان رد الفعل لا يزيده الا قوة وصلابة. وليس هذا من قبيل الانشاء والتجويد والمزايدة بالألفاظ .. بل التاريخ شاهد على صحته ، ونظرة فيما قصه الله عز وجل علينا في كتابه العزيز، من قصص دعوة الإسلام على مر تاريخ ابن آدم - منذ أنزل أبوهم آدم بالتوحيد، حتى دعوة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم - ترى مصداق ما قررناه، من أن الابتلاءات والمحن، ليست الا بوتقة كريمة تصهر فيها ارادة المسلمين لتخرج، منها أصلب عودا وأعمق تجربة مصداقا لقوله تعالى :

{ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }[1]

وهذا ماغفل عنه الطغاة الذين يكيلون الضربات بقسوة وعنف، وهم لا يشعرون بأن الله سبحانه قد جعلهم فتنة للذين آمنوا يمحصهم بهم ، وليميز الخبيث من الطيب ، وأن تلك الضربات ستعود عليهم وبالا يوم أن يورث الله سبحانه الأرض لعباده المتقين كما وعدهم اذ قال :

{ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171)إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ(172)وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ(173) }[2]

---

[1] آل عمران - 173

[2] الصافات 171 - 173

وهذه الصحوة الإسلامية ليست وليدة أيامنا أيامنا الحاضرة هذه ، بل إن جذورها تمتد الى ما بعد سقوط الخلافة العثمانية في نهاية الربع الأول للقرن الماضي ، حيث أحدثت الهزة التي أسقطت كرسي الخلافة صحوة في نفوس مجموعة الدعاة الأوائل، حملوها لمن بعدهم جذوة متقدة في النفوس الحية، التي تأبى إلا أن تحيا حياة الإسلام ولاترضى بغيره بديلاً .

الا أن الأحزان التي تحيط بواقع الحياة الإسلامية المعاصرة كثيرة أيضا. فانه لا تكاد تقر عينك بما تراه من اتساع الحركة الإسلامية ، وتكاثف الكم الإسلامي نسبياً، حتى ترى من خلف تلك الظواهر ما يحزنك ، ويملأ نفسك أسى وحسرة. فالإسلاميون مشتتون لايجمعهم فكر واحد ولا منهج موحد، ولاينتظمهم صف معاً، لاختلاف أفكارهم ومناهجهم وأغراضهم ، قد وقعوا في التفرق والاختلاف الذي نهى الله تعالى عنه وحذر عباده منه، فقال :

{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[1]

وكان من نتيجة هذا الضعف وتلك الفرقة، أن استهان بهم الطغاة ، ورماهم عدوهم عن قوس واحد أصابت منهم الصميم ، وراحت تقطف من خيرة شبابهم ما شاء لها كل بضع سنوات ، فما دفعهم ذلك الى مراجعة مناهجهم المتعددة المتفرقة أوإلى إعادة النظر في خطواتهم المضطربة المتفتتة، وصدق قول الله عز وجل :

{ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ }[2]

ولا نقول ذلك ليخبو الأمل في نفوس المحبين لدعوة الإسلام، والعاملين عليها، فاليأس من روح الله أول مدارج الكفر. ولكن أول خطوات الشفاء تشخيص المرض تشخيصاً دقيقاً، ومعرفة العلة معرفة تامة محيطة بكل جوانبها، ثم بناء العلاج على ذلك التشخيص والتحديد، بما هو مناسب له ومؤثر فيه.

فما هي أسباب هذا الضعف وهذه الفرقة والتشتت ؟

لاشك أن لهذا الأمر أصولا وجذورا بعيدة تمتد من منتصف القرن الأول الهجري وحتى حاضرنا هذا. الا أننا سنقتصر في هذه التقدمة على ملاحظة الأسباب الحاضرة القريبة دون البعيدة ، مرجئين الحديث عن أصول وجذور التفرق الى مواضعها من البحثإأن شاء الله تعالى.

هناك عاملان أساسيان، أديا إلى ضعف وتفرق الإسلاميين خاصة، عامل داخلي و عامل خارجي.

---

[1] ال عمران - 105

[2] الأنفال - 46

أما العامل الخارجي فهو ناشئ مما يكاد لهم من مكر، وما يكال لهم من ضربات، أدت الى ضعفهم وعدم تمكنهم من إبراز دعوتهم والجهر بها، و عرضها على العامة من الناس ليدخل فيها من شاء الله تعالى له الهداية، فقلت القلة العددية النسبية لهم - اذا قورنت بالقاعدة العريضة لجماهير الناس الغافلة عن الهدى، المنتسبين الى الإعلام انتساباً دون وقوف على حقيقته ومقتضاه - ظلت قلتهم العددية تلك سبباً في ضعفهم، وظلت سمتهم الرئيسية - في غالب الأحوال - هي الاستخفاء بأمر الدعوة، حسب ما أداه إليه اجتهادهم، خوف البطش والتنكيل من أعدائهم المتربصين.

وكان من لوازم ذلك ونتائجه، أمورا عدة، نذكر منها أن الأمر قد اقتصر على التلويح بالدعوة، دون التصريح بها صافية غضة متكاملة، عقيدة وعملاً، كما أرادها الله عز وجل. كذلك التصريح ببعض ما تشتمل عليه الدعوة المباركة من مفاهيم وتوجيهات ، وكتمان أكثر ما ينبني على تلك المفاهيم والتوجيهات الربانية من أمور هي نتائج حتمية لها، وهذه النتائج تنظم مناحي الحياة كلها سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية .

والدعوة المباركة في أول طريقها، كالغرسة الصغيرة، تحتاج الى الرعاية والعناية، وإلى الدفئ والغذاء والكمون، وهي بعد بذرة ضعيفة قد وضعتها يد العناية تحت طبقة الأرض، بعيدة عن الأيدي والأبصار، لتمنع عنها غائلة القوى التي تعمل للقضاء عليها في مهدها، حتى تكبر شيئا فشيئا، ثم تبرز للعيان وتقوم على ساق، وتتعرض للشمس والهواء، فيشتد عودها وتنمو فروعها وتطرح ثمارها بما ينفع الناس.

{ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ }[1]

ولابد بعد الكمون من تفتح وانطلاق.. وهو ما أغلقت عليه العوامل الخارجية المحيطة بالدعوة، مما أدى الى ضعف الاسلاميين وانكماشهم داخل دائرة محدودة لايتجاوزونها.

وقد كان من نتائج هذا الجو المحيط بالدعوة الإسلامية أن تضاربت المفاهيم عن الإسلام وحدوده، والايمان ودرجاته، وكثير من القضايا الاعتقادية التي تمس جوهر التوحيد. كما انبني على ذلك تضارب المفاهيم العملية التي تستمد شرعيتها من القواعد النظرية، فظهرت البدع القولية ، والعملية وباضت وفرّخت، وأخرجت لنا ما يراه الدارس للحركة الإسلامية من تفرق وتشتت واختلاف بين أبنائها، منعت من اتحاد كلمتهم تحت قيادة واحدة، تُعطي لها صفقة اليد واللسان، ويرفع الله بها الاختلاف المذموم.

أما العامل الداخلي فهو المؤشر الرئيس - كما نحسب - فيما آلت اليه حالة المسلمين خلال القرون الماضية من تفرق وتأخر. ونعني بالعامل الداخلي تلك الأمور التي تنشأ داخل المجتمع

---

[1] الفتح – 29 .

نفسه، نتيجه حركته الذاتية، ونتيجة ما يواجهه من أحداث ومواقف وأوضاع سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو علمية. فالتعصب والهوى والجهل والقول بغير علم واتباع الرؤوس الجهال والعجب بالرأي، كل ذلك إنما ينشأ داخل المجتمع، نتيجة ظروفه الخاصة و أوضاعه الداخلية .

ومجتمع الإسلاميين اليوم أشبه ما يكون بالمجتمع الإسلامي الكبير في حركته خلال القرون الماضية، وما يسوده من تفرق وتشتتت. وإنما هو صدى لذلك التفرق القديم الحديث الذي ساد المجتمع الإسلامي في حركته عبر التاريخ .

ولانقول ذلك بمجرد الإستقراء التاريخي والواقعي للأحداث، بل هو ما دل عليه الشرع، وأنبأ به سيد المرسلين عليه صلوات الله وسلامه، فيما رواه عنه الإمام أحمد بسنده عن ثوبان قال قال، رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها قال : قلنا : يا رسول الله أمن قلة بنا يؤمنذ قال: أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن قال : قلنا : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت)[1]. ولابد لنا من بعض التفاصيل لتلك الجملة ليتضح المقصود بذلك.

إن الله سبحانه وتعالى قد سنّ سنناً كونية - طبيعية واجتماعية - تجري على كافة خلقه دون تحيز أو تمييز. هذه السنن تربط المجتمعات في حركة صعودها و هبوطها، وتقدمها وتأخرها، وتحكمها بما لا يدع منها فكاك . يقول الأستاذ جودت سعيد :

(ولاشك أن تركيب المجتمع، وغنى فئة فيه وافتقار أخرى، أمور خاضعة لقوانين وسنن اجتماعية اذا خفيت عن عيني الإنسان اشتبهت عليه الأمور وتداخلت في ذهنه المشكلات وظن أن القضية فوضى لاضابط لها ولا عدل فيها ولاتصدر عن حكيم عليم . إن الذي عرف قوانين المجتمع يمكن أن يستخدم وسائل مختلفة لقياس صلابة المجتمع، وسلامة شبكة علاقائه، كما يمكن أن يستعين بمختلف التحاليل التي يجريها على الأحكام التي يصورها المجتمع على تفسير الأحداث، ليحدد نوع الخلل الذي يعانيه المجتمع إن الخبير بسنن المجتمعات يمكن أن يدرك، ويتخذ إجراءات في تغيير نظرات المجتمع)[2]

---

[1] ج 5، ص 278

[2] حتى يغيروا ما بأنفسهم ص 21 والحق أنه كان من الأوفق أن يضرب الكاتب المثل بالقوة و الضعف إذ أن الفقر والغنى يخضعان للسنن الإلهية كما يخضعان للسنة الإجتماعية المتعلقة بالأسباب والمسببات .

وقد دلنا الله سبحانه على هذه السنن، فيما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد قال تعالى مجملا :{ **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا** }[1] ، وقال تعالى : { **لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** }[2]

ثم فصل تعالى من تلك السنن ما يهدي الناس إلى فهم تلك الحقيقة العظمى والإعتبار بها والعمل بموجبها . قال تعالى : { **إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** }[3] . و قال تعالى : { **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** }[4].

فالسنة المذكورة في الآية الأولى، جاءت بلفظ مطلق هو (قوم)، أيّ قوم. والسنة في الآية الثانية جاءت بلفظ مطلق أيضا هو (أمة)، أي أمة.

وقد ربط القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بين السنن الطبيعية والسنن الإجتماعية في عديد من الأمثلة، تقريباً للافهام، وتقريراً لحقيقة تلك العلاقة التي منشؤها اتحاد كليهما في مصدره، حيث أن كليهما من سنن الله تعالى التي لاتتبدل، والتي تتحكم في عمومها الخلق من حيث هو خلق طبيعي كالمادة و مادي روحي كالبشر .

قال صلى الله عليه وسلم : (**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**) رواه البخاري .

وعن النعمان ابن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولا نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجوا جميعا**) رواه البخاري .

ثم نضرب مثالاً يبين أن السنن الإجتماعية التي سنها الله تعالى لا تختص بأمة من الأمم، بل هي تربط العمران البشري بقوانين واحدة لاتتخلف . يقول ابن خلدون : (والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطوق والنطاق، الذي هو الغاية عجزت واقصرت عما وراءه... ثم إذا أدركها الهرم والضعف فإنما تأخذ في التناقض من جهة الأطراف ولايزال المركز محفوظاً، إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمة جملة. فحينئذ يكون انقراض المركز، وإذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها.. وانظر هذا في الدولة الفارسية، كان مركزها المدائن، فلما غلب المسلمون على المدائن، انقرض أمر فارس أجمع،

---

[1] الأحزاب - 62

[2] الروم - 30

[3] الرعد - 11

[4] يونس - 49

ولم ينتفع يزدجر بما بقى بيده من أطراف ممالكه. وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام، لما كان مركزها القسطنطينية، لم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم، فلم يزل ملكهم متصلاً بها، إلى أن تأذن الله بانقراضه. وانظر أيضا شأن العرب أول الإسلام، لما كانت عصائبهم موفورة، كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر بأسرع وقت، ثم تجاوزا ذلك إلى ما وراءه من السند والحبشة وافريقية والمغرب ثم الى الأندلس. فلما تفرقوا حِصصاً على الممالك والثغور، ونزلوها حامية ونفذ عددهم في تلك التوزيعات، واقصروا عن الفتوحات بعد، وانتهى أمر الإسلام ولم يتجاوز تلك الحدود، ومنها تراجعت الدولة حتى تاذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدولة من بعد ذلك، كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة، وعند نفاذ عددهم بالتوزيع، ينقطع لهم الفتح والاستيلاء، سنة الله في خلقه)[1] .

وقد غابت تلك الحقيقة العظمى عن عقول الإسلاميين، فلم ينفذوا إلى الأسباب الحقيقية وراء مشاكلهم، وبالتالي لم يستطيعوا أن يضعوا الحلول السليمة المدروسة لها حسب سنن الله تعالى وقوانينه، فنشأ التخبط واضطربت الخطوات، وتفرقت الجهود .

ومثال ما دل عليه الله سبحانه من سنن تهدي المسلمين خلال دروب الحياة الدنيا، من خلال ماوصى به في مفردات التشريع، قوله تعالى { **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**}[2] .

فهذه الآية الكريمة، وإن كانت أمراً مباشراً للمسلمين بإعداد العدة والقوة - بكل أنواعها، سياسية واقتصادية واجتماعية و علمية - لملاقاة الكافرين، إلا أنها تدل بمفهومها على أن إعداد العدة سبب الي النصر على أعداء الله تعالى قد أمرنا باتخاذه ، والإخلال به مؤد بطريق اللزوم الى الإخلال بنتائجه، من عدم إمكان النصر والتفوق والعلوّ .

فإن مما قدره الله سبحانه وتعالى ربط الأسباب بنتائجها، على وجه العموم. فالإنسان إذا أتى بالسبب على الوجه الأكمل ننشأ عنه المُسَبَب والنتيجة بإذن الله تعالى. فإن لم تنشأ النتيجة، فلابد من وجود خلل في الأخذ بالسبب، وإن توهمنا غير ذلك . وانظر إلى عبرة السيرة النبوية في غزوتي بدر الكبرى وأحد، ترى مصداق ماقررناه واضحاً، ففي غزوة بدر، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بما استطاع من عدة وعدد، يتكافأ مع الغرض الأصلي الذي خرج لأجله مع أصحابه، وهو ملاقاة قافلة أبي سفيان لاغير. وقد قدر الله سبحانه غير هذا اللقاء، فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك النقص في الأخذ بالسبب، فشاور أصحابه من الأنصار حتى يكونوا على يقين عند اللقاء، ثم أكمل صلى الله عليه وسلم النقص في العدة المادية - الذي حدث دون علم منه أو رغبة إليه – بالدعاء إلى الله تعالى، فبالغ في الدعاء مبالغة دفعت

---

[1] مقدمة ابن خلدون - ص 62

[2] الأنفال – 60

الصديق أبا بكر الى أن يقول: (يانبي الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ماوعدك) .[1]

والدعاء سبب من الأسباب التي جعلها الله سبحانه للتوصل بها إلى الأهداف، بجانب الأسباب المادية التي لابد منها، فتم المقصود وحصلت النتيجة وانتصر المسلمون .

والإعتماد على الأسباب المادية كلية لايكون إلا مع إنعدام الثقة بالله تعالى، بل هو خلع مستتر لربقة الإسلام، بينما إغفال الأسباب المادية بالكلية إعراض عن سنن الله تعالى في الكون والحياة، وإغفال لأوامره إجمالاً وتفصيلاً. بل الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم لصاحب الناقة (**إعقلها وتوكل**)[2] وهو جار على مقتضى الجمع بين قوله تعالى :

{ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** } وقوله تعالى :{ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** }[3] أما في غزوة أحد فعندما أغفل المسلمون اتباع الأمر، وفرطوا في الحرص واختل الأخذ بالسبب، تراجعوا أمام أعدائهم، وجعله الله تعالى درساً لهم وللمسلمين من بعدهم، لا ينسى، من حيث أنه لا دالة خاصة لأحد من البشر أو أمة من الأمم، عند الله تعالى، إن لم تتقيد بما سنه الله تعالى من سنن لا تتبدل .

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى :

(والأمور لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً ، فهنالك نواميس ثابتة تتحقق لاتتبدل ولاتتحول. والقران يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا إلى الأحداث فرادى، ولايعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة، محصورين في فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان، ويرفع تصوراتهم لارتباطات الحياة، وسنن الوجود، فيوجههم دائما إلى ثبات السنن واطراد النواميس ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأحيال قبلهم، ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس)[4] .

والسنن تستلزم تدبر ما كان من أحداث غاشية، والاعتبار بتجارب الغير، من المسلمين أو غيرهم من الأمم والملل. و ذلك - كما يقول ابن خلدون - (حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرون في أحوال الدين والدنيا)[5] وقد قال تعالى :

---

[1] تهذيب السيرة لعبد السلام هارون – ص 165

[2] جزء من حديث رواه الترمذي ، انظر : ابن الأثير جامع الأصول 11 /792

[3] غافر - 60

[4] في ظلال القران ج 5 - ص 2950

[5] المقدمة - ص 9

{ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ** }[1] .

فان التدبر في عاقبة الماضين، والنظر فيما جرى للغابرين، هو عبرة حية من الأولين للآخرين، حتى نستفيد منها ونتلافى ما وقع لهم نتيجة خطأ أو زلل .

ولا فرق هنا بين الاعتبار بتجارب الأمم السابقة التي ضلت ضلالاً تاماً ، فأخذها الله بذنوبها، وانزل بها العذاب الدنيوي قبل الأخروي، وبين الاعتبار بتجارب المعاصرين من الإسلاميين، الذين خاضوا معترك العمل الإسلامي من منطلقات فيها خطأ أو انحراف فكري، فأدى بهم الى نكبات ومحن، وأدت بالعمل الإسلامي ذاته الى التقهقر والتأخر. لأن السنن هي السنن، والعوامل التي أدت إلى انحلال وتفرق المسلمين، هي بذاتها - أو قريباً منها - التي أدت الى انحراف الأمم السابقة وهو مدلول حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه . قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن؟**).

ومن سنن الله تعالى التي لابد من اعتبارها للوصول الى الأهداف، حسن التدبر والتخطيط ، والبعد عن التجريدات النظرية، واتباع قوانين الملاحظة والتجرية العلمية وعدم التواكل والغفلة، والحذر الجريء، والإقدام في مواطنه، و الإحجام حيث تدعوا المصلحة الشرعية إليه، الى غير ذلك مما لايدعوا المقام الى الاستطراد في تفصيله، حتى لا يتوجه البحث إلى غير الهدف الذي تنشده هنا. وإنما أردنا أن نستدل على أن إهمال تلك السنن الكونية الثابتة ، وعدم اعتبارها أدى الى الضعف والإنحطاط والتشتت والتفرق، ولايزال سبباً فيما يعاني منه الإسلاميون حتى اليوم، من بعد عن الهدف، وتشتت في النظر، وتأخر في الأساليب. فلا سبيل إلى الوصول إلى الهدف المرجو، إلا النظر بذلك المنظار، الذي يجعل المسلم يدرك خضوعه لقوانين الله المبثوثة في الكون كما يخضع لشرائعه المنزّلة في كتبه .

فمنهج النظر الأصلي هو الذي جعل سلفنا الصالح يصل الى الذرورة العليا، ويتقلد أزمة الأمور في مشارق الأرض ومغاربها، وجعل مسلمي اليوم لايكادون يملكون أمر رقعة الأرض التي يعيشون عليها - نستغفر الله - بل يكادون أن يُنَازعوا في مساكنهم وأهليهم[2] ! فيا لها من فتنة تدع الحليم حيرانا .

ثم نعود مرة أخرى إلى التفرق والإختلاف الذي هو منشأ الضعف والإنحلال - والذي يدور عليه بحثنا خاصة - فنقول :

---

[1] الروم - 42

[2] وهو ما نراه في مستوطنات الصهاينة في فلسكين المحتلة بالفعل.

إن كتاب الله تعالى قد ضرب لنا من الأمثلة عن اختلاف من سبقنا من الأمم الكثيرة، كما أبان لنا في بعضها سبب هذا الاختلاف .

قال تعالى { وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}[1]

وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}[2] وقال تعالى : { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ}[3] .

وقد دلت هذه الآيات على أمرين جامعين :

أولهما أن الإختلاف في الأمم السابقة كان مع وجود العلم بينهم، وليس في حالة فقده، كما قال تعالى : { مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } وقال تعالى : { إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ }[4] .

ولايكون ذلك إلا عن أحد الطريقين : إما التأويل أو التبديل .

والثاني هو تحذير الله سبحانه وتعالى للمسلمين من عدم التفرق مثلما تفرق الذين من قبلهم، وذلك بالتصريح تارة كما في قوله تعالى : {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا } أو بالتلميح أخرى كما في قوله تعالى : { لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} فإن ذلك كالنص على عدم التفرق والتشتت، إذ أن من يتبرأ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكون عمله منهيا عنه بطريق اللزوم.

ورغم ذلك الأمر الشرعي الإلهي بعدم التفرق والإختلاف، فقد جاء الأمر القدري الكوني بخلاف ذلك، ودلت الأحاديث الصحيحة الصريحة بما يؤكد أن الخلاف واقع قدراً – لامحالة - بين هذه الأمة .

فمن ذلك ما رواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، أواثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)[5]

وروى مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه أقبل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل، فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً ثم انصرف فقال : (سألت ربي ثلاثاً

---

[1] آل عمران - 105

[2] الأنعام - 159

[3] البينة - 4

[4] الاستثناء بالأبعد النفي يفيد التأكيد على ذلك المعنى، وهو انهم ضلوا بعد أن جاءهم العلم.

[5] رواه أبو داود : كتاب السنة 187/4 ، ورواه ابن ماجة والترمذي وقال عنه حسن صحيح

فاعطاني اثنين ومنعني واحدة، سألت ربي : أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها. وسألت ربي : أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها . وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)[1]

وفي حديث ثوبان الذي رواه مسلم (**سألت ربي لأمتي أن لايهلكها بسنة عامة وأن لايسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم نت بأقطارها - أو قال : من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا**)[2] .

يقول الإمام ابن تيمية تعليقا على هذه الأحاديث :

(وهذا المعنى محفوظ عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه، يشير إلى أن الفرق والاختلاف لابد من وقوعهما في الأمة، وكان يحذر أمته من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة، كما روى النّزال بن سَبْرة عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رجلاً قرأ آية سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها، فاخذت بيده فانطلقت به الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له ، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال : كلاكما محسن، ولاتختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)[3] .

ولقائل أن يقول : فإن كان ما ذكرتم حقاً، من أن القدر الكوني جاء بوقوع الخلاف والتفرق، وأخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم خبراً جازماً من ضرورة وقوعه، فما الفائدة من التنبيه عليه والتحذير منه إن كان لابد واقعاً ؟

فنقول وبالله التوفيق : إن إيضاح ذلك يكون بثلاثة أوجه :

أولها : أنه يجب أن يميز المسلم بين الأمر الشرعي، والقدر الكوني تمييزاً واضحاً لأهمية هذا المقام في فهم الكثير مما أشكل فهمه على من خفى عليه هذا الموضع. فان إرادة الله سبحانه وتعالى تشتمل على مايحبه ويرضاه، وعلى ما يبغضه ولا يرضاه ، فالإرادة الكونية هي الإرادة التي يقع بمقتضاها كل ما في الكون من أمور، سواء وافقت شرع الله أو خالفته وسواء جاءت على وفق رضا الله أو بغضه. والإرادة الشرعية هي الإرادة التي لا يقع بمقتضاها إلا ما يحبه الله تعالى ويرضاه من عباده ، وهي، من ثم، الموافقة للأمر والنهي ، فالأمر والنهي موافقان للإرادة الشرعية، فإن الأمر يعني طلب الله سبحانه فعل مايرضاه ويحبه ، والنهي يعني طلب الله سبحانه عدم فعل ما يبغضه.

---

[1] السنة : الجدب والقحط العام

[2] صحيح مسلم - 2116 - كتاب الفتن ط - دار الفكر

[3] رواه مسلم - 2215 - كتاب الفتن ط - دار الفكر

والله سبحانه قد بين في كتابه كل واحدة من (الكلمات) و (الأمر) و (الإرادة) و (الإذن) و (الكتاب) و (الحكم) و(القضاء) و (التحريم) ونحو ذلك مما هو ديني، موافق لمحبة الله ورضاه وامره الشرعي ، وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية .

مثال ذلك أنه قال في (الأمر الديني) : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ} وقال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} ونحو ذلك ، وقال في (الكوني) : { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} وكذلك قوله : { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً آمَرْنَا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عَلَيْها القَوْلُ} على إحدى الأقوال في هذه الآية .

وقال في (الإرادة الكونية) { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } وقال { فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}

وقال نوح عليه السلام { وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ } .

وقال تعالى : { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}[1] .

فإذا وضح هذا المقام أمكن التمييز بين كلا الأمرين، وهو أن الفرقة والاختلاف واقعان لامحالة وهي الإرادة الكونية القدرية، وأن الأمر الشرعي هو النهي عن الوقوع فيهما ولاتعارض بينهما كما تبين .

الثاني أن الدعوة إلى مذهب السلف الصالح لهذه الأمة، وبيان فساد ما شذّ عن هذا المنهج، يؤدي الى تكثير الفرقة الناجية المعتصمة بالحق . روى مسلم في صحيحه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**).

وفي حديث الفرق، قال صلى الله عليه وسلم - في إحدى الروايات - (إحداهما الناجية). فالطائفة الظاهرة على الحق الناجية المنصورة، هي التي تتبع ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأهل السنة والجماعة من بعدهم. فوجبت الدعوة إلى ما هم عليه تكثيراً لسوادهم، وتقليصاً لحجم من خالفهم من أهل الأهواء والبدع. وكفى بذلك داعياً لنصرة مذهبهم والدعوة اليه .

يقول ابن تيمية رحمه الله :

---

[1] مجموع الفتاوي لابن تيمية ج 10 - ص 24

(ولا يقال: فإذا كان الكتاب والسنة دالين على وقوع ذلك، فما فائدة النهي عنه؟ فيقال أن الكتاب والسنة أيضا قد دلّا على أنه لايزال في هذه الأمة طائفة متمسكة بالحق إلى قيام الساعة، وأنها لا تجتمع على ضلالة في النهي من ذلك بكثير لهذه الطائفة نسأل الله المجيب أن يجعلنا منها)[1].

الثالث أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل مفروض على كل مسلم حسب القدرة والطاقة، بشرط أن لا يؤدي إلى فساد أكبر منه بطبيعة الحال، كما تبين في الأصل. بل الواجب على كل مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب طاقته، حتى يتقي العذاب كما في قوله تعالى :

{ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }[2] .

يقول ابن كثير في تفسير الآية :

يخبر الله تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا الى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ... قال تعالى : { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ} أي فلما أبي الفاعلون قبول النصيحة { أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا } أي ارتكبوا المعصية { بِعَذَابٍ بَئِيسٍ } فقص عن النجاة الناهين وعن هلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لايستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين [3] .

وقد عرف الواقع الإسلامي بداية التفرق مع حلول النصف الثاني للقرن الأول الهجري[4] ، وبالتحديد في أواخر خلافة عليّ رضي الله عنه، فقد ظهرت بدعة (الخوارج) أولاً كفرقة سياسية، دعت الى الخروج على عليّ رضي الله عنه، وقد أدى بها الأمر إلى أن انتهجت نهجاً معيناً في النظر للنصوص، حتى تصل إلى مفهومها السياسي الذي كانت تدعوا إليه من ضرورة الخروج على عليّ ومعاوية رضي الله عنهما، معا، ومن ثم تبلور لها منهج فكري محدد اتسم بظاهرية شديدة و غلو موغلٍ في النظر للنصوص، مع كونهم كانوا متشددين في العبادة وصدق فيهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى زيد بن وهب قال عن علي ابن أبي طالب

---

[1] اقتضاء الصراط المستقيم ص - 44

[2] الأعراف 164 - 165

[3] تفسير ابن كثير : 258/2 - ط. مكتبة الرياض الحديثة.

[4] راجع الفتاوى لابن تيمية 12 / 208

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (**يخرج قوم من أمتي يقرؤن القرآن يحسبون انه لهم وهو عليهم لاتجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية**) رواه مسلم وأحمد .

ثم نبغت بعدها الرافضة، الذين تخفوا وراء ستار التشيع لأهل البيت، وابتدعوا في الدين ما لم ينزل به سلطانا، مما سيتضح لنا أثناء دراستنا التفصيلية لتلك الفرق إن شاء الله، فغيّروا وبدلوا وردوا الأحاديث الصحيحة، واتخذوا طريقهم إلى ذلك الطعن في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي هريرة وغيره .. بل تطاولوا إلى رمي الإمامين الراشدين أبا بكر الصديق والفاروق عمر بالكفر - عياذا بالله - تحت دعوى أنهما اغتصبا من الإمام عليّ الخلافة والولاية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. بل منهم من غلا أكثر من ذلك فادعى الألوهية لعليّ رضي الله عنه - كالسبأية - فحرقهم عليّ جزاءً لهم على ذلك فقالوا : (لايحرق بالنار إلا ربها) [1] .

فكان (الرفض) (كالخروج) مثالاً لما يؤدي إليه التطرف والغلو من تنكّب للصراط المستقيم، وانحراف عن الطريق القويم .

يقول ابن تيمية :

(وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة، حدثت في أثناء خلافة أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب، فعاقب الطائفتين. أما الخوارج فقاتلوه فقاتلهم، وأما الشيعة فحرق غالبيتهم، وطلب قتل عبد الله بن سبأ فهرب منه، وأمر بجلد من يفضّله على أبي بكر الصديق وعمر، وروي عنه من وجوه كثيرة أنه قال: خير هذه الأمة، بعد نبيها، أبو بكر ثم عمر - رواه البخاري [2] .

وقد ظهرت كذلك فرق عديدة، بدأت في أولها بصبغة فكرية، ثم انقلبت إلى الوجهة السياسية، كالمعتزلة الذين طغوا وبغوا على من خالفهم، حين تمكنوا من مقاليد الأمور أيام الخليفة المأمون العباسي، فأجبروا العلماء على الإقرار بعقائدهم الفاسدة من ادعائهم خلق القرآن، وأنهم أهل العدل لإنكارهم القدر، وأهل التوحيد لتعطيلهم صفات الله الثابتة له وما ابتدعوه من أن المسلم العاصي مخلد في جهنم، في منزلة بين المنزلتين، الكفر والإسلام! وغير ذلك كثير مما استهواهم إليه الشيطان فطغوا وبغوا، وكانوا بذلك أول من خالف مبادئهم الداعية إلى الحرية الإنسانية في الإعتقاد والعمل .

ثم كانت بدعة الإرجاء، وهي الطامة التي أتت على الوادي فطمّته، فنشرت الفساد في المجتمع الإسلامي، لِمَا ادعته من أن المسلم هو من نطق بالشهادتين لفظاً دون أي التزام بالعمل ! وإن خالف أصول الشريعة وعقائدها وناقض التوحيد بفعله ، وجهل أصل دين الأنبياء الذي تطابقت

[1] راجع الفتاوى لابن تيمية ج 13 - ص 208

[2] الفتاوى لابن تيمية ج 1 / ص 279

عليه دعوتهم من أفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية. بل زعموا أنه لا يضر مع إيمان معصية، كما لاينفع مع كفر طاعة ! وأن المسلم سيدخل الجنة بلا ريب، دون أن يرد الجحيم مهما أتى من أفعال، ففتحوا باب الفساد والاستهتار بالشعائر والشرائع، وجرأوا الناس على حدود الله تعالى، فكانوا دعاة فسق وانحلال بما نشروا من مبادئ .

ونحن في هذه التقدمة لا نقصد إلى استقصاء أسماء الفرق التي نبعت في الإسلام، فإن ذلك ما سيدور عليه البحث تفصيلا خلال دراستنا للفرق الكبرى المؤثرة في الواقع الإسلامي - كالخوارج والمرجئة والروافض والمعتزلة والصوفية والقاديانية والبهائية .. - ولكنها مجرد عجالة تنقلنا إلى ذلك الواقع الأليم الذي عاشه المسلمون ممزقين، بما جنته عليهم تلك الفرق من تشتت وضعف .

وإن ما يهمنا في هذه العجالة أن ننبه إلى أمرين هامين بالنسبة لما نشأ من فرق في الإسلام.

أولهما : أن كل فرقة من تلك الفرق قد ألبست الحق بالباطل، فأخرجت للناس بدعها وضلالها تحت لافتات إسلامية، وفي قوالب إسلامية، ليغتر بها العامة فيتبعوهم معتقدين أنهم على الكتاب والسنة مقيمون، ولمذهب السلف الصالح متبعون .

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان بعد كلام عن التحيل الباطل :

(... وإنما غرضه التوصل بها إلى ما هو ممنوع منه، فجعلها سترة وجُنّة، يتستر بها من ارتكب ما نهى عنه، أخرجه في قالب الشرع، كما أخرجت الجهمية التعطيل في قالب التنزيه).

وأخرج المنافقون النفاق في قالب الإحسان والتوفيق والعقل المعيشي .

وأخرج الظلمة الفجرة الظلم والعدوان في قالب السياسة وعقوبة الجناة.

وأخرج الروافض الإلحاد والكفر والقدح في سادات الصحابة وحزب رسول الله صلى الله عليه و سلم و أوليائه وأنصاره، في قالب محبة أهل البيت والتعصب لهم وموالاتهم .

وأخرج فسقة المنتسبين إلى الفقر والتصوف بدعهم وشطحهم في قالب الفقر والزهد والأحوال والمعارف ومحبة الله ونحو ذلك .

وأخرجت الإتحادية أعظم الكفر والإلحاد في قالب التوحيد، وأن الوجود واحد لا اثنان، وهو الله وحده، فليس ها هنا وجودان خالق و مخلوق، ولا رب ولا عبد، بل الوجود كله واحد، وهو حقيقة الرب .

وأخرجت القدرية إنكار عموم قدرة الله تعالى على جميع الموجودات، أفعالها وأعيانها في قالب العدل، وقالوا : لو كان الرب قادراً على أفعال عباده لزم أن يكون ظالماً لهم فأخرجوا تكذيبهم بالقدر في قالب العدل .

وأخرجت الخوارج قتال الأئمة والخروج عليهم بالسيف في قالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأخرج أرباب البدع جميعهم بدعهم في قوالب متنوعة بحسب تلك البدع، فكل صاحب باطل لا يتمكن من ترسيخ باطله الإ بإخراجه في قالب حق) [1] .

فهذا المعنى ينبغي أن يتعمقه الإسلاميون في هذا العصر المضطرب، المعتمل بالفتنة القولية والفعلية ،حتى لايخدعهم عن دينهم خادع ولا يزيف لهم الأصول الإسلامية الصحيحة مزيف، فينقادوا ورائه غافلين، وهم يحسبون أنهم مهتدون.

والثاني أن كل فرقة من تلك الفرق قد جاءت بما يضاد الأخرى. فالخوارج تشددوا وتنطعوا حتى أخرجوا المسلمين من دائرة الإسلام وجعلوا مرتكب المعصية كافراً مخلداً في النار وأشاعوا اليأس والقنوط من رحمة الله .

بينما المرجئة تساهلوا وتسيّبوا حتى أدخلوا في الإسلام كلّ منتسب اليه، ولإن ناقض التوحيد بأقواله وأفعاله ، و أوجبوا أن يدخل الجنة كل ناطق بالشهادتين دون حساب، فأشاعوا الفسق والمعاصي في الناس .

كذلك المعتزلة قد عطلوا صفات الباري سبحانه ، وادعوا العدل والتوحيد بذلك التعطيل، بينما المجسمة قد أثبتوا له سبحانه جوارح، كما هي للبشر تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

والجهمية أنكرت الإرادة الإنسانية مطلقاً، وأثبتت القدر، وجعلت الإنسان بلا إرادة ولا اختيار، بينما القدرية أطلقوا الإنسان من مشيئة الله تعالى وأنكروا القدر، وجعلوا الإنسان يفعل ما لايشاء الله سبحانه .

فكل فرقة جاءت بطرف النقيض مع غيرها، وكانوا جميعاً إما مفرّطين أو مفرطين. وهكذا الإبتداع والغلو والتطرف، لايؤدي إلا إلى مناقضة الكتاب والسنة والشريعة الوسيطة التي عليها أهل السنة والجماعة .

يقول محمد عبد الله دراز :

(وإذن فبدلاً من أن يؤكد الأشاعرة القدرة الإلهية الكاملة التي غاب عن المعتزلة تأكيدها، وبدلاً من أن يجعلوها في مقابل الحكمة التي حاول المعتزلة إبرازها – نجدهم، بدافع الحمية وقلة الحنكة النظرية - قد ألغوا تقريباً الحكمة من أجل القدرة) [2] .

ويقول ابن تيمية :

---

[1] إغاثة اللهفان ج 2 ص 81

[2] دستور الأخلاق ص 69

(المتكلمة يجعلون العقل وحده أصل علمهم، ويجعلون القرآن والإيمان تابعين له، وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويرون أن الأحوال العالية والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل، وكلا الطرفين مذموم) [1] .

ثم يقول رحمه الله تعالى :

وهم " المسلمون " وسطٌ في باب أفعال الله عز وجل، بين المعتزلة المكِذبين بالقدر والجبرية، النافين لحكمة الله ورحمته وعدله، وفي باب الوعد والوعيد، بين الوعيدية الذين يقولون بتخليد عصاة المسلمين في النار، وبين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد وما فضّل الله به الأبرار على الفجار .

وهم وسط في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بين المغالي في بعضهم، الذي يقول فيه بإلهيته ، أو نبوته او عصمته، والحاقد منهم الذي يكفر بعضهم أو يفسقه وهم خيار هذه الأمة) [2] .

ويقول كذلك :

(فهم " المسلمون " وسطٌ في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه، لم يحرم عليهم شيئاً من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحل لهم شيئاً من الخبائث كما استحلها النصارى ، ولم يضيّق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى، ولا غلواً في الأنبياء والصالحين كغلو النصارى ، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود، ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود ولا أشركوا بعبادته أحداً كفعل النصارى ، وأهل السنة والجماعة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل)[3] .

ويقول الشاطبي :

(الشريعة جارية في التكليف على الطريق الوسط الأعدل والأخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه ..... فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط)[4] .

---

[1] الفتاوى ص 338

[2] الجواب الصحيح ج1 / ص8

[3] الجواب الصحيح ج1 ص 6

[4] الموافقات ج2 / ص 163 وبعدها كتاب المقاصد .

ولقائل أن يقول : لماذا ندرس تلك الفرق القديمة البائدة التي عفى عليها الزمان ، والتي بادت فيما باد من الأيام ؟ ألم يتناولها الأئمة في كتبهم التي وضعوها عن الفرق والملل والنحل، ففندوا تلك الأراء ، وأظهروا باطلها و أبانوا مقاصدها ؟

والجواب : أن هذه الفرق قديمة حديثة في آن واحد، فإن امتداداتها لاتزال تسري مسرى الميكروب في الجسم، ينخر بالداء المهلك. فنحن لا نزال نسمع من هنا وهناك على امتداد رقعة الأرض الإسلامية أفكاراً ممسوخة لآراء المعتزلة، يتشدق بها بعض المُغرضين من المتعالين الذين استهوتهم حضارة الغرب وأساليبها فادَّعوا أن العقل هو الحاكم في حياة الإنسان وانه لا نجاة ولا علو لنا في خضم التيار الحضاري الحديث إلا باتباع العقل وحده وترك أمور "ما وراء الطبيعة " لتقبع في زاوية من زوايا الوجدان الإنساني، كذكرى تغذي المشاعر وتلهب العواطف في بعض الأحيان ليس إلا ! أما أن تتدخل ... في طرق حياتنا ومعيشتنا وأساليبنا فهذا هو الخطر والتأخر. وهم في أقوالهم تلك يتسترون وراء أفكار الإعتزال، التي مهدت لهم الطريق إلى ما ادعوه من سلطان للعقل على الشرع، فأمنوا من الناس أن يرموا بالإلحاد والزندقة ، واستطاعوا بث أفكارهم الخبيثة المغرضة تحت شعار الإسلام منتسبين إلى الإعتزال صراحة تارة، والى التقدمية تارة أخرى.

كما لانزال نرى أفراخ الخوارج بتنطعهم في الدين، وافترائهم على الله، والزيادة على شرعه بما لم ينزل به سلطاناً، فضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. ضاقت عقولهم عن أن يجمعوا أطراف الإسلام ويضموا أدلته بعضها الى بعض، فيفهموه فهماً سليماً بعيدا عن التطرف والزيغ، وبعيدا عن ضيق الأفق وانغلاق العقل، لا تزال تراهم بين أظهرنا متمثلين في جماعات تدعو الى ضلالها، خلاف بقايا المعتزلة، الذين لم يعد لهم وجود كجماعات متماسكة، وإنما كدعوات فردية تظهر من خلال فكر أو كتابات صحفية أو غيرها، وتؤثر في الشباب المخلص المتعطش للعودة إلى دينه و عقيدته. فهم شباب مخلصون، ولكنهم وقعوا فريسة الحرْفية - كما سيتبين بعد - وشهوة التشدد، وإنها لشهوة خفية ، حيث يظن المرء أنه وحدة على حق، وكل الناس على باطل !

وأما الذين يؤمنون بالإمام المعصوم ونائبه، ويعتقدون في بشر أنهم يعلمون الغيب ،ويتصرفون في ذرات الكون، وأنهم لايموتون إلا باختيارهم ! وهم يقدمون العقبات ويطوفون بالأضرحة فأولئك هم الروافض - الضالون المضلون - الذين استطاعوا، لما تقهقرت السنة وعلت البدعة وسادت الفرقة، أن يقيموا لهم دولة قوية، بل وأن يهددوا ما جاورهم من دول مجتمعة معاً.

ثم اليس عجيبا أن ترى الشباب المسلم - وهم من الشباب المثقف الجامعي ثقافة علمية أو نظري، قد ألغوا عقولهم وغسلوا أدمغتهم وانخرطوا في صفوف " الصوفية " يستمعون إلى الدجل والخرافات والجهل واتباع المنامات، ويتركون نور القرآن وضياء السنة والسبيل القويم ليأخذهم الشيخ إلى الغناء والاتحاد ! ويمر بهم في مراحل اليقظة والإنبهار ... إلى غير ذلك

من مراحل ما أنزل الله بها من سلطان. وحقاً إنه لفناء ! فناء العقل والتمييز الذي به كلّف الله العباد .

إنه من أعجب العجب أن يقود جاهل هذه القافلة من الشباب الذين استناموا للراحة من عناء التفكير والدرس والبحث والعمل، وسلموا أنفسهم بهذه السهولة إلى رؤوس الشياطين من الإنس ليضلوهم عن سبيل الله. فهل ظنوا أنهم يرتوون روحياً عن هذه الطريق ؟! ربما ! المهم أنهم قد تخلوا عن قافلة الجهاد في سبيل الله وإقرار لا إله إلا الله في الأرض ، وهو عين ما يبتغيه المغرضون.

وإذن فلابد من الكتابة، ولابد من البيان ، ولابد أن يقف الشباب على أرض صلبة واضحة المعالم ، ولابد أن يؤسس البنيان على قواعد سليمة متماسكة فقد قيل بحق : (لايستقيم الظل والعود أعوج) .

ولن نتخلص من الفرقة، ولن نعود الى القوة ، مالم تتحدد لنا شخصية متميزة محددة بحدود وضوابط، هي ما اختطه السلف الصالح لنا، من منهج قويم يقوّم الإنحراف ويدفع إلى الأمام في كل مجالات الحياة و يعود علينا بخير الدنيا والآخرة .

فدراستنا هذه وإن كانت في ظاهرها دراسة للماضي، ومراجعة للتاريخ الفكري لفرق المبتدعة، الذين جنوا على ماضي المسلمين ، إلا أنها دراسة حاضرة كذلك[1]، من حيث إنها تكشف جذور البلاء الذي يشتت قوى الإسلاميين ويفرقهم شيعاً ، ويجعل بأسهم بينهم شديداً ، بل هي نور يضيء لشبابنا طريقه وسط هذا الظلام الفكري المفتعل، الذي لايخدم إلا أعداء الإسلام وشانئيه.

سنبدأ إن شاء الله تعالى ببيان اسباب الخلاف بين طوائف الملة - سواء الداخلية أو الخارجية .

وستقع الدراسة، إن شاء الله تعالى، في عدة كتيبات، تبدأ أولها - وهو ما بين أيدينا حاليا - بدراسة أسباب الخلاف الذي يقع بين طوائف الملة الداخلية والخارجية ، وإيضاح تأثيرها على الشخصية الإسلامية، وصياغتها في الماضي والحاضر .

ثم يتبع ذلك - باذن الله تعالى - الحديث عن الفرق بشكل متتابع حسب ظهورها على مسرح الأحداث – ما أمكن - نبدأها بالخوارج ثم الروافض ثم المرجئة فالمعتزلة والجهمية ... إلى غير ذلك من أسماء كثيرة لعبت دوراً في ماضي المسلمين ، ولا تزال آثارها تعيش بينهم. وسنضرب الذكر صفحاً عن فرق بادت واندثرت وطويت صفحاتها واختفت آثارها، حتى لا يكون البحث نظرياً مجرداً ، بل يظل مرتبطا بحياة الإسلام الواقعية المعاصرة .

---

[1] يقول ولي الدين الدهلوي : وبالجملة إذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا، بل الواقع أنه ما من بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو موجود اليوم بطريق الأنموذج بحكم الحديث (لتتبعن سنن من قبلكم) الفوز الكبير / 26

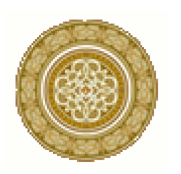
ذكرنا فيما تقدم - أن العوامل التي أثرت - ولاتزال - في المسلمين ، والتي أدت إلى تفرقهم وتشتتهم شيعاً، تنقسم الى :

1- عوامل داخلية .
2- عوامل خارجية .

فالعوامل الداخلية هي تلك التي تنشأ في داخل كيان الأمة نتيجة للتركيب الإجتماعي أو الإنحراف الفكري أو الأغراض الشخصية، الى غير ذلك من أسباب تؤدي الى انقسام الأمة على نفسها، تعصباً لفريق منها ضد فريق ، أو جهلاً من بعضها بالحق كله أو بعضه ، أو بغياً منها على أخرى، إلى غير ذلك كما سيتبين بعد بشيء من التفصيل .

والعوامل الخارجية هي المقصود بها تلك الأسباب التي أثرت في الأمة من خارجها، نتيجة لاحتكاكها بمن سواها من الأمم احتكاكا فكرياً واجتماعياً، نتيجة الفتوحات مثلاً ، أو الترجمة ونقل المعارف. وقد استتبع ذلك أن دخلت على المسلمين مفاهيم وتصورات وأفكار وعادات غريبة عن الكيان الإسلامي جملة وتفصيلاً، فعملت عملها في إشاعة التفرق وتشعب الأراء والأهواء بعد أن تعددت الموارد التي يُستقى منها.

وسنبدأ - بعون الله تعالى - بدراسة العوامل الداخلية ، أذ هي الأوْلى بالمبادرة والعلاج بين الإسلاميين ، لأنها ناشئة من بين أنفسهم وقد قال تعالى : { **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** }[1] .



[1] الرعد 11

الفصل الأول
العوامل الداخلية

تمهيد :

حينما تدرج أمة - أي أمة - على مدارج النشأة والتكوين، نجدها وقد استنفرت أحسن ما في أفرادها من الإمكانات والمواهب والقدرات، في كافة المجالات السلوكية والإجتماعية والعلمية، كما نجدها كذلك أماتت ما بين أفرادها من نزاعات هدامة تخرج بها عن طريقها المرسوم. فنجدها تشق طريقها بقوة وبسرعة، حتى تظهر على مسرح الحياة، قوية فتية، لا مجال للضعف والتفرق بين أبنائها . ثم لا تلبث أن تصل إلى طور الإستقرار والتوسع، الذي غالباً م ايصاحبه الغني بعد الفقر ، والترف بعد الخشونة ، والحضارة بعد البداوة فتستبدل شيئاً فشيئاً بمشاعر القوة والاندفاع مشاعر الترف والتنعم، فيبدأ افرادها في الإنشغال بما بين أنفسهم، بدلا من الإنشغال بمن هم خارج كيانهم من أعداء متربصين، فقد أمنت حدودهم وتوسعت رقعتهم. فإذا حدث ذلك، ابتدع كل صاحب هوى بدعة اتبعه عليها فريق فيتعادون ويتخاصمون ، ثم يتفاخرون ويتحاربون ، فيصيبهم الضعف، ويطمع فيهم أعداؤهم، وتبدأ دولتهم في الأفول ، وينقصها الأعداء من أطرافها، فيكون ذلك مؤذنا بزوالها وخرابها .

وعلى قدر الدافع الرئيسي الأول الذي اندفع به مؤسسوا الأمة وبُنَاتها ، ومدى إخلاصهم وصدقهم في تلبيته، يكون مدى توسعها وانتشارها في المكان، ومدى طول بقائها واستمرار آثارها في الزمان .

ولذلك كان الدافع الديني هو أقوى الدوافع التي تقوم عليها الأمم، وتنشأ بها الدول. والإسلام هو أقوى من قدم - ولايزال - الدافع القاهر لمعتنقيه - بعقيدته الحقة الصافية، وكتابه الإلهي المنزل حتى حملهم على اكتساح العالم المتحضر آنذاك، واخضاعه بقوة السيف وبرهان الكلمة، فعلى السيف والقلم معا تعتمد الأمم في نشر مبادئها وتوطيد أركانها ودعائها .

يقول ابن خلدون في (مقدمته):

(لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها، من شظف العيش والبسالة والإفتراس والإشتراك في المجد. فلاتزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون .

والجيل الثاني يتحول حالهم بالملل والترف من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد، إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه ، ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء و تؤنسُ منهم المهانة

والخضوع، ويبقى لهم الكثير من ذلك، بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم ...

أما الجيل الثالث، فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية، بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما باشروه[1] من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالاً على الدولة، ومن النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة، يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النساء على ظهورها، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته..)[2] .

وقد مرت أمة الإسلام بتلك الأطوار كلها ، وتمثلت فيها - كما تمثلت في غيرها من الأمم - خاصة بعد انتقالها من الخلافة إلى الملك. فلما أن وصلت الى حد الترف والتنعم ، وبدأت الدنيا تأتي الى المسلمين وهي راغمة ، أخذ الشيطان يعمل عمله في نفوس الضعفاء من أبنائها ، مستعيناً عليهم بما في داخل أنفسهم من ضعف تارة ، وبما ورد إليهم من ثقافات تتناقض مع أساس عقيدتهم ومنبع علمهم - القرآن - تارة أخرى ، فظهرت فيهم أمراض فكرية وقلبية فتاكة، لاتظهر في أمة إلا أضعفت بنيانها ومزقت أوصالها وفرقت أبناءها . وأهم هذه الأمراض :

1- اتباع الهوى
2- التعصب
3- الجهل

وسنحاول دراسة هذه العوامل، ونلقي عليها ضوءاً يكشف آثارها للإسلاميين في هذا العصر، حتى نخرجها من زوايا العقول، التي ربما تكون متأثرة بها دون أن تكتشف حقيقة العلة الكامنة فيها، لعدم العلم بها ابتداءاً. فهذه العوامل ذاتها هي التي ما زالت تنخر في جسد الكيان الإسلامي النامي في هذا العصر، كما فعلت في كيان الدولة الإسلامية في القديم .



---

[1] تفتق : تنعم بعد بؤس ، انظر حاشية المقدمة 2/ 546 نشرة علي عبد الواحد وافي .

[2] المقدمة ص 170، نقلنا هذا النص لابن خلدون لتوضيح فكرة الترف العقلي الذي أصاب المسلمين في بداية القرن الثاني ، وملاحظة ابن خلدون للدول استقرأها من كثير من الدول الإسلامية ولكنها ليست قاعدة عامة في أن الجيل الثالث يتحول الى الحالة التي وصفها، وإنما يعنى المرحلة الثالثة على ما نحسب.

المبحث الأول

إتباع الهوى

الهوى بين اللغة والشرع :

جاء في لسان العرب لابن منظور :

{ هوى بالفتح , يهْوى هَوياً هويا وهويانا وانهوى : سقط من فوق إلى أسفل ، واهواه هو : يقال أهويته إذا القيته من فوق ، وقوله عز وجل { وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} يعني مدائن قوم لوط أي أسقطها فهَوت أي سقطت .

والهوى : مقصور : هوى النفس وإذا أضفته إليك قلت هواي .

... ابن سيده : الهوى : العشق يكون في مداخل الخير والشر وهوى النفس إرادتها والجمع أهواء .

قال اللغويون : الهوى محبة الإنسان للشيء وسطوته على قلبه.

قال تعالى : **{ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}** .

معناها ، ونهاها عن شهواتها وما تدعوا إليه من معاصي الله عز وجل وقوله عز وجل{**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ** }

قال الفراء : معنى الآية يقول : اجعل افئدة من الناس تريدهم[1]

وفي تاج العروس :

(قال ابن سيده : يكون في مداخل الخير والشر . وقال غيره من تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً، حتى ينعت بما يخرج معناه. كقولهم هوى حسن وهوى موافق للصواب .

والهوى : إرادة النفس والجمع : أهواء).

مما تقدم نرى أن مادة (هوى) قد وردت بمعنين أصليين يتفرع عنهما معان أخرى .

أولهما : هوى (منكر) يعني السقوط من فوق .

---

[1] لسان العرب ج 15 ص 371

وثانيهما : الهوى (مقصوراً بتعريف الألف واللام) : يعني ميل النفس إلى الشيء محبة ورغبة وإرادة .

وقد ورد الشرع بمثل المعنيين .

ففي الأول :

قال تعالى {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}[1]

وقال تعالى {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}[2] أي أسقط فأهوى .

وقال تعالى : {وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ }[3] هلك .

وفي الحديث الشريف :

قوله صلى الله عليه وسلم (**... يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوى به**)[4]

وفي الثاني :

قال تعالى : { **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**}[5]

وقال تعالى : { **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا** }[6]

وقال تعالى : { **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** }[7]

وقال تعالى : { **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**}[8]

---

[1] النجم – 1

[2] النجم - 53

[3] طه - 81

[4] مسند الإمام أحمد

[5] ص - 26

[6] الفرقان - 43

[7] النجم - 3

[8] النازعات 40، 41

وفي الحديث الشريف : ما رواه أحمد بسنده عن أبي برزة قال صلى الله عليه وسلم (**أنما اخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى**)[1] .

وفي مسلم والمسند : (**إلا من أشرب من هواه**) .[2]

وفي الموطا : (**يبدؤن أعمالهم قبل أهوائهم**) .[3]

وكلا المعنيين متصل بالأخر صلة السبب بالنتيجة .

ففي الحديث روى الدارمي في المقدمة بسنده : **(إنما سموا أصحاب الأهواء لأنهم يهوون في النار)**[4]

وفي الأثر عن الشعبي : (إنما سمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه) .[5]

وورد في مفردات القرآن للراغب الأصبهاني :

(الهوى : ميل النفس إلى الشهوة ، ويقال كذلك النفس المائلة إلى الشهوة ، وقيل سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهية ، وفي الآخرة الى الهاوية. والهوي سقوط من علو إلى أسفل . وقد عظم الله تعالى ذم اتباع الهوى فقال : { **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ** } وقال { **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم**} فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيهاً على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر ثم هوى كل واحد لا يتناهى ، فإذا أهوائهم نهاية الضلال والحيرة) .[6]

حقيقة الهوى :

نخلص من ذلك كله في تعريف الهوى إلى أنه :

لغة :

هو ميل النفس إلى ماتحبه وترضاه

شرعاً : هو ميل النفس إلى نيل شهوة تلائم طبعها، أو اتباع شبهة توافق عقلها .[7]

---

[1] مسند احمد ج 4 ص 420

[2] أحمد ج5 ص 386 ، ومسلم الإيمان ص 231

[3] ص - 88

[4] ص / 35

[5] ذم الهوى لابن الجوزي وروي مرفوعاً للدارمي في المقدمة

[6] المفردات - 548

[7] مما يجدر ملاحظته في هذا المقام هو ماجري على أقلام ائمة السلف من اصطلاح (أهل الأهواء والبدع) فقد شاع هذا المصطلح في عهد الصحابة والتابعين، وبعد ذلك في الكتب عامة ، فدل ذلك على نوع من التقارب بين الأهواء

يقول الشاطبي (لذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الإفتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم ، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك ، وأكثر هؤلاء هم اهل التحسين والتقبيح[1] ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم ، ويدخل في غمارهم من كان منهم يخشى السلاطين لنيل ماعندهم أو طلبا للرئاسة) . [2]

وتفصيل هذا الكلام أن الهوى قسمان :

نيل شهوة أو اتباع شبهة [3].

فصاحب الشهوة يُتبع نفسه هواها، فيلهث وراء مطمع دنيوي، أو غرض شخصي، كجاه أو مال أو منصب ، فيقدم ما اشتهته نفسه على ما شرعه الله ، ويعرض عن الطلب الشرعي إما تأويلاً للحكم الشرعي أو إغضاء عنه وازوراراً عن اتباعه . وهذا القسم أهون القسمين وأظهرهما لصاحبه وللناس .

والثاني هو الذي يأتي صاحبه من قبل الشبهات .

والشبه العارضة لا يلزم أن تكون لا دليل عليها البتة ، بل يمكننا أن نتصور أقساماً ثلاثة للشبه يُتبع فيها الهوى ، بالنسبة للدليل الشرعي.

أولها : شبهة لا دليل عليها البتة في الشريعة ، وهي تؤدي إلى ما أسماه الشاطبي (البدعة الحقيقية) (4) ومثالها :

ترك الزواج وصيام الدهر وقيام الليل دون النوم .. وهذا النوع يتبع الهوى بإطلاق إذ لا دليل في جملة الشرع ولا تفصيله عليه. ويظهر هذا القسم في فرقة (الصوفية) خاصة الذين يشرعون لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله .

والبدع وذلك يعني تخصيص لفظ الهوى بأحد معانيه وهو اتباع الشبهات ، وأن الهوى يطلق على متابعة النفس على وجه العموم سواء بمعصية أو بدعة. وأما الاصطلاح الدارج في آثار السلف، فإننا نلحظ فيه تخصيصاً لمعنى الهوى بما هو مؤد إلى البدعة عامة , والبدعة تكون نتيجة للأهواء. فالذم واقع على السبب أحياناً وعلى النتيجة أحياناً أخرى، إلا إذا قلنا إن البدع تنشأ عادة عن الشبهات والشهوات معاً، فهنا يكون اصطلاح أهل الأهواء مطابقاً لأهل البدع تماما .

[1] المقصود بهم المعتزلة ومن جرى مجراهم في تقديم العقل على الشرع سواءً أعلن ذلك كالمعتزلة، أو أخفاه كالخوارج والمرجئة .

[2] الإعتصام 2 / 176

[3] الشهوة إما محمودة وإما مذمومة ، فالمحمودة هي ما أقرها الشرع وكانت من طريق الحلال كشهوة النكاح ، والمذمومة ما لم تكن عن طريق الحق كالزنا، والشهوة المقصودة هنا هي المذمومة . انظر الذريعة إلى مكارم الشريعة / 46 .

وثانيهما : شبهة عليها دليل مجمل ولكن ليس عليها دليل مخصوص وهي تؤدي إلى ما أسماه الشاطبي (البدعة الإضافية) [1] .

فهي تتعلق بالسنة من جهة أن الدليل دل عليها جملة ، وهي تتعلق بالبدعة من جهة أن الدليل لم يدل عليها تفصيلاً .

ومثالها التزام صوم النصف من شعبان .

يقول الشاطبي : (ومن ذلك تخصيص الأيام الفاضلة بأنواع من العبادات التي لم تشرع لها تخصيصا، كتخصيص اليوم الفلاني بكذا وكذا من الركعات أو بصدقة كذا وكذا .. فإن ذلك التخصيص والعمل به إذا لم يكن بحكم الوفاق أو يقصد مثله أهل العقل و الفراغ والنشاط كان تشريعاً زائداً)

وثالثهما : الشبهة التي تعرض من قبل المناط - أي تطبيق الواقع على الحكم الشرعي - لا من قبل الدليل ، وهذه كثيراً مايكون عليها دليل شرعي صحيح. وإنما الأمر فيها أن صاحبها يقدم أمراً شرعياً على أمر شرعي آخر هو أولى منه بالتقدمة ، وأدعى للمصلحة الشرعية، وأنسب لمقصد الشريعة دون تمحيص للأدلة ، ولاكتمال القدرة على الترجيح والنظر في الأدلة . ولا يكون ذلك إلا باتباع ما تميل إليه النفس في طبيعتها المركبة، فإنه عند غياب العلم الهادي للحق، لا يكون إلا الهوى المنكر للحق.

وهذا القسم الثالث هو ما سنركز عليه في الأمثلة التي سنوردها بعد - في جانبي العقيدة والدعوة - في موضعها من البحث ، لانتشارها في الواقع الإسلامي المعاصر، إلى جانب ماشاع فيه من انحرافات عن الطريق السوي ، ولندرة من تعرض إليها بالبحث والتفصيل .

وكثيراً ماتعرض الشبهة للعقل ، ولاغضاضة في ذلك فقد كانت الشبهات تعرض على الصحابة رضوان الله عليهم ، ويحدثون بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهديهم إلى الطريق السديد في ذلك الأمر، كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(**لايزال الناس يتسآلون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله**) واللفظ لمسلم.

فالفرق بين شخص وآخر ينشأ من معالجة الشبهة ومدى تأثيرها عليه.

- فالشبهة التي تصادف نفساً معتدلة متوازنة - لاتميل إلى رأي ولاتتبنى اتجاهاً قبل أن تعرض الأمر على كتاب الله وسنة رسوله، لتاخذ منهما ما يهديانها الى الحق، لايكون لها تأثير في صاحبها .

[1] راجع { الإعتصام } للشاطبي ج 1 ص 286 وبعدها .

فهو إذن ينفيها عن نفسه بسرعة إن كانت من المتشابهات التي لا سبيل إلى معرفتها، وهو ما دل عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق .

- وأما أن يفزع إلى العلم ويهتدي بنور الكتاب والسنة في كشف ظلمات الشبهة قبل أن يغيم ظلامها على العقل، فتمنعه من رؤية الحق.

- والشبهة التي تصادف نفسا ذات ميل معين أو طابع غلاب ، يجعلانها تميل إلى ما يوافق طبعها، وتتحكم في العقل لقوة ذلك الميل أو الطبع وسيطرته. والنفوس تختلف في طابعها الأصلي وجبلتها الفطرية .

- فنفس قوية وثابتة طموحة، تميل إلى العنف وتعشق الصراع .

- ونفس هادئة تؤثر الدعة والإطمئنان على العنف والصراع .

- ونفس ملتوية مقصرة تميل إلى الغموض ولا تقبل الوضوح .

- ونفس منغلقة شاردة تكره الانضباط وتتفلت من كل قيد .

تتولد الشبهة وتصادف ميل النفس فتدفع العقل إلى إقرارها ، ويقدم لها الدليل تلو الدليل ، ويزول ما يخالفها ، ويرد من الأدلة مايعاكسها ، ثم يدافع عنها اللسان ويتخذها صاحبها علماً يدافع عنه في كل حين ومقام .

وهذا القسم من الهوى هو أخطر القسمين على صاحبه و على الناس .

ذلك أن الهوى فيه يتخذ سبيله في النفس والعقل عجباً ، فلا يكاد يدري صاحبه بما هو مقدم عليه من تقديم بين يدي الله ورسوله ، بل لايخلوا صاحبه من إخلاص في أول أمره، ولكن الإخلاص وحده لا يكفي، بل لابد من العلم ومن التجرد من الهوى والرأي المسبق.

يقول الدكتور جيسون في كتابه (كيف تفكر):

(وعندما يكون المرء متغرضاً فنادراً مايدرك هو أنه كذلك)[1]

فغالبا ما يكون الهوى - في هذا النوع - خافياً على صاحبه في أول الأمر ، إذ الغالب فيه التكبر عن الاهتداء بآراء الاعلام أو الإقتداء بمن سبقه في العلم والعمل معاً .

وإنما هو يقدم لنفسه مقدمات يجعلها لازمة لايصح للمسلم دينٌ إلا بالسير عليها :

- وجوب اتباع الدليل

- عدم جواز التقليد

---

[1] { كيف تفكر } سلسلة الشريط الحريري ،د. جيسون / ص 29 .

- ضرورة الإستنباط من الكتاب والسنة فقط ونبذ الآراء .

وكلها حق، ولكن أحياناً تؤدي إلى عكس المقصود. فعند التطبيق يظهر الاخلال بمعانيها وخروجها عن المراد منها .

- فاتباع الدليل ينقلب إلى إهدار العلوم الشرعية الخادمة للدخول كالأصول والعربية .

- وعدم جواز التقليد يصبح تسفيهاً لآراء العلماء والإعراض عن فتاوى الأئمة، ومناهج نظرهم في الإستدلال والفتوى .

- والأخذ من الكتاب والسنة يصير الى الظاهرية في تناول النصوص ومنهج البحث. وكثيراً ما يظهر لصاحب الهوى - شيئاً فشيئاً - فساد مايذهب إليه ، ويرى نقاط الضعف في بنائه وتتضح له الأدلة المعارضة لقوله .

ولكن - واأسفاه - غالبا مايكون قد أشتهر في الناس بقوله الذي ينصره، والتف حوله الكثير من الأتباع، يتخذونه معلماً وقائداً ، فيكون ذلك مانعاً له من التراجع ، فيزين له الشيطان البقاء على قوله ، وتصرفه كبرياؤه عن الإعتراف بالخطأ ، فتراه يغض النظر عن الأدلة المضادة لقوله، ويرمقها من طرف العين، ولاتدفعه نفسه إلى دراستها وتفحصها ومعرفة مدلولاتها ، فيتبع هواه وهو عالم بما هو واقع فيه بعد أن كان هواه خافياً عليه وعلى الناس أجمعين .

هذا هو الداء العضال الذي تعاني منه البنية الإسلامية المعاصرة أيما عناء، كما عانى منه المسلمون طوال تاريخهم الطويل .

ولابد لنا من أمثلة نتتبع فيها مسارب الهوى، من لحظات ميلاده الأولى داخل النفس، حتى تصل إلى نهاية المطاف، وقد أصبح رأيا يتقلده صاحبه ويدافع عنه بالحق والباطل .

- نأخذ مثالاً في مجال الدعوة ، تلك النفس القوية العنيفة التي لاترضي إلا بشرعة التدافع والقهر. ثم إن هذه النفس قد صادفت واقعاً بعيداً عن الإسلام ، فهي ترغب في تغييره واستبداله بواقع إسلامي نقيّ، تكون فيه صلتها بدينها موصولة العرى، كما أراد لها ربها أن تكون. فينشأ في هذه النفس - وفي غفلة من العقل الفاحص المدقق - اتجاه يدفعها إلى الحل العنيف دفعاً، ويجعلها تقدمه على غيره ابتداءاً. ذلك ولم يُعرض على العقل دليل بعد، ولم يسع في البحث عن الأمر.

وحين تعرض الأدلة ، ويلتزم العقل الفاحص المدقق بالنظر فيها والبحث عن أصحها وأولاها بالأتباع، في هذا الواقع المضطرب المائج بشتى العوامل المتشابكة، حين يطلب من العقل النظر في الأحكام الشرعية وفي مقتضيات الواقع معاً ليكون حكمه صحيحاً - و الفتوى لاتكون حقاً إلا أن يعتبر فيها الحكم الشرعي الأصلي، ومطابقته للواقع المراد تطبيق الحكم عليه، كما نصّ على ذلك ابن تيمية في الفتاوى - حين يطلب من العقل ذلك، نجده وقد غشيت عليه تلك الفطرة الأصيلة في النفس، لشدة ميلها إليه وسيطرته عليها ، فتوجهه إلى تقديم ما يناسبه من

أدلة شرعية تدل على طلب الجهاد وقتال العدو ومواجهة المشركين، ويزين له ذلك للعقل أن القتال أمر مطلوب شرعاً، لايشك في ذلك مسلم. فهو إذن متبع لأمر شرعي، فاين هو من الهوى!؟ بل سواه ممن يعارضه في ذلك هم صاحب الهوى وهو الذي يتعدى نص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم !

ولايخفي وجه الحق في هذه المسالة ، إذ أن الفتوى الشرعية الصحيحة يجب أن تدخل في الاعتبار كل العوامل الواقعية السائدة فقد يكون الحكم الشرعي الأصلي هو الجهاد والقتال والمواجهة ولكن ذلك حكم مجرد عن واقعه ، بينما الفتوى المبنية على ذلك الواقع تكون ممارسة طرق اخرى للدعوة تسبق الجهاد، وتهيأه للمواجهة. وما قصدناه من اتباع الهوى واضح في المثال المتقدم بما لا مزيد عليه .

- ومثال أخر في مجال العقيدة وكيف تدخلها البدعة من قبل الهوى .

من الناس من يتعرض في مجال الدعوة للابتلاءات والمحن، أو من تجري امامه على مسرح الأحداث الإسلامية ما لايوافق مزاجه ، كما حدث في موضوع التحكيم زمن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه .

فنجد أن ذلك إن صادف نفساً هادئة تؤثر الدعة والإطمئنان ، دفعتها إلى محاولة المصالحة مع الواقع ، والإبتعاد عن مخاطر الدعوة المرتقبة ، والتقليل من حجم الخسارة قدر الإمكان. فنجد أن العقل - لسيطرة النفس عليه وشدة ميلها لهواها – يقبل من الأدلة ما يؤيد أن ذلك الواقع إنما هو مجرد واقع إسلامي يحتاج إلى بعض الإصلاح والتقويم ، وإنه لابأس بما عليه الناس في جملتهم ، وإنما هو بعض الإلتزام في هذا الجانب وبعض التقويم في ذلك الجانب. فإذا نحن في عصر الخلافة الراشدة مرة أخرى ! وذلك هو منهج التفريط ومدخل (الارجاء) في كل آن.

- ومثال ثالث ، إن صادف نفساً جمعت بين القوة والعنف، وبين البساطة والسطحية ، دفعتها دفعاً إلى رفض هذا المجتمع جملة برمته ، واستقرت في الوجدان دعوى لا دليل عليها، أن ذلك المجتمع خارج عن دين الله - بأفراده وهيئاته - فإنه لا يمكن أن تكون مثل تلك الأحداث في وسط ينتسب فيه أي فرد للإسلام، هكذا دون تفصيل بين الأفراد والهيئات. ثم حين يبدأ البحث عن حقيقة الإسلام والإيمان ، وتعرض عليه الأدلة على اختلافها، نجده وقد تخيّر منها ما يؤكد المعنى المستقر في نفسه، من أن ذنب المسلم كفر، ومعصية الله كفر.. وهكذا يمضي في تكفير المجتمع والأفراد على حد سواء. وذلك هو منهج الإفراط ومدخل (الخروج) في كل عصر .

وممن أشار إلى تلك المسالك الخفية للهوى في النفس العلامة الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني في كتابه (القائد إلى تصحيح العقائد) قال :

(افرض أنك وقفت على حديثين لا تعرف صحتهما ولا ضعفهما، أحدهما يوافق قولاً لإمامك ، والأخر يخالفه ، أيكون نظرك فيهما سواء ، لاتبالي أن يصح سند كل منهما أو يضعف ؟

افرض أن رجلاً تحبه وآخر تبغضه، تنازعا في قضية، فاستُفتيت فيها، ولاتستحضر حكمها وتريد أن تنظر، ألا يكون هواك في موافقة الذي تحبه ؟

افرض أنك وعالماً تحبه، وأخر تكرهه، أفتى كل منكم في قضية، واطلعت على فتوى صاحبيك فرأيتهما صواباً. ثم بلغك أن عالما آخر اعترض على واحدة من تلك الفتاوى، وشدد النكير عليها أتكون حالك واحدة سواء كانت هي فتواك أم فتوى صاحبيك أم فتوى مكروهك ؟

فتش نفسك تجدك مبتلي بمعصية أو نقص في الدين ، وتجد من تبغضه مبتلى بمعصية أو نقص آخر ليس في الشرع بأشدّ مما أنت مبتلى به ؟ فهل تجد استشناعك ما هو عليه مساوياً لاستشناعك ما أنت عليه ، وتجد مقتك نفسك مساوياً لمقتك إياه ؟

وبالجملة فمسالك الهوى أكثر من أن تحصى. وقد جربت نفسي، إنني ربما أنظر في القضية زاعماً أنه لاهوى لي ، فيلوح لي فيها معنى ، فأقرره تقريرا يعجبني ، ثم يلوح لي ما يخدش في ذلك المعنى ، فأجدني أتبرم بذلك الخادش وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب ، وإنما هذا لأني لما قررت ذاك المعنى أولاً تقريراً أعجبني صرت أهوى صحته ، هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس ، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ثم لاح لي الخدش ؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش ولكن رجلاً آخر اعترض علي به ؟ فكيف لو كان المعترض من أكرهه ؟) [1] .

ويمكن لنا أن نتتبع مثل تلك المداخل النفسية في العديد من الفرق ، لندرك أن نشأتها إنما كانت هوى خفياً استقر في النفس ، ثم بحث عن دليل صدقه فقدم النتائج على المقدمات ، وقدم هواه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، رغم دعواه العريضة بالالتزام بهما ، والموفق من رأى من نفسه ذلك فعالجها قبل أن يستعصي الداء على الدواء .

يقول الشاطبي في تقرير ماسبق :

(.... وهي أن المبتدع لابد له من تعلق بشبهة دليل ينسبها إلى الشارع ، ويدعي أن ما ذكره هو مقصود الشارع ، فصار هواه مقصوداً بدليل شرعي في زعمه ، فكيف يمكنه الخروج عن ذلك وداعي الهوى مستمسك بحسن مايتمسك به ؟ وهو الدليل الشرعي في الجملة .

ومن الدليل على ذلك ما روى الأوزاعي قال : بلغني أن من ابتدع بدعة ضلالة ... ألقي عليه الخشوع والبكاءK كي يصطاد بهK وقال بعض الصحابة : أشد الناس عبادة مفتون ... الى قوله :

---

[1] القائد - 26

(وما ذاك إلا لخفة يجدونها في ذلك الإلتزام، ونشاط بداخلهم يستسهلون به الصعب، بسبب ما داخل النفس من الهوى ، فاذا بدا للمبتدع ما هو عليه رآه محبوباً عنده لاستبعاده للشهوات - وعمله من جملتها - ورآه موافقاً للدليل عنده ، فما الذي يضره عن الإستمساك به والإزدياد منه ، وهو يرى أن أعماله أفضل من أعمال غيره ، واعتقاداته اوفق وأعلى ؟ أفيفيد البرهان مطلباً ؟ {**كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** } [1]

بين الهوى والخطأ والمعصية :

يختلط الأمر على كثير من الإسلاميين في التفرقة بين أمرين، لدقة الفرق بين ظاهريهما، وهما - اتباع الهوى - والخطأ في الاجتهاد والفرق بينهما كبير سواء في المنشأ أو النتيجة أو العاقبة.

فمنشأ الهوى في النفس هو كما رأينا ، دافع خفي باطن يسبق الدليل وبتقدمه، ويدفع العقل إلى اتخاذ خط معين في الإحتجاج بالأدلة، موجهاً إياها لخدمة غرضه وهواه .

والخطأ في الإجتهاد ينشأ عن أسباب عديدة[2] :

منها عدم وصول الحديث الصحيح إلى المجتهد .

أو إخفاء جهة الدلالة في الآية أو الحديث .

أو الخطا في استنباط العلة وتحديدها أو في تطبيق أحد الأدلة الشرعية كالقياس أو الإستصحاب أو غير ذلك من أوجه الخطأ المحتمل في الإجتهاد .

ومما يلاحظ أن ذلك معتبر عند من بلغ رتبة الأجتهاد ، وحصل العلم المطلوب للتصدي للإفتاء، أما من لم يحصل العلم اللازم فأخطأ عن جهل فذلك أمر آخر. إذ الأمر عندئذ دائر بين احتمالين. فإما أن يعلم الحق ويتبين له الصواب، فيرد عن رأيه الذي ذهب إليه حال جهله ، أو أن يصر على رأيه ويغض الطرف عن الأدلة التي تظهر له ما كان غائبا عنه أو أن جهله ، وهي حالة تدل على صدوره عن الهدى في رأيه السابق وأنه اجتمع عليه الجهل والهوى .

فالهوى أمر باطن ولايُستدل عليه إلا بدليل خارجي، كأن يعرض على من يظن به الهوى الأدلة الدالة على فساد مذهبه ، فان أصر على ما هو عليه، وأخذ في المراوغة والتأويل، فهو صاحب هوى ولاشك .

---

[1] الاعتصام ج 1من 124 وبعدها

[2] راجع رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية فهو في غاية الفائدة في هذا الباب

يقول الشاطبي : (إلا أن هذه الخاصية راجعة في المعرفة بها إلى كل أحد في خاصة نفسه ، لأن اتباع الهوى أمر باطن فلا يعرفه غير صاحبه ، إذا لم يغالط نفسه إلا أن يكون عليها دليل خارجي)[1] .

ففي ظاهر الأمر يستوي صاحب الهوى والمخطئ، حتى يستدل على الهوى بدليل خارجي، كأن تعرض عليه الأدلة الصحيحة ، أو تشيع تلك الأدلة بما لايدع مجالاً في اطلاعه عليها فحينها يُعرف أنه صاحب هوى .

فالمجتهد - إذن – لا يُقدم بين يدي الله ورسوله ، ولا يسبق إلى فكره ونفسه هوى معين قبل الدليل الشرعي ، وإنما هو راغب في الوصول إلى الحق ، وساعٍ في سبيل ذلك بالطريق الصحيح وإن أخطأ في النظر .

وعن نتيجة كل منهما :

والهوى لاينتج إلا البدعة والتفرق ، والبدعة لايرجع عنها صاحبها ، بل تتمكن من نفسه، فلا يكاد يكون أمل في العدول عنها حتى وإن ظهر الدليل خلافها ، فإن الكبر واعتياد الرئاسة والتقدم تمنعه من اتباع الحق وترك ما هو فيه من صدارة .

عن يحيى ابن أبي عمرو الشيباني قال: (كان يقال: يأبى الله لصاحب بدعة توبة، وما انتقل صاحب بدعة إلا إلى ما هو أشرمنها).

ونحوه عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : (ماكان رجل على رأي من البدعة فتركه إلا إلى ما هو أشر منه) .

وخرج ابن وهب عن عمر ابن عبد العزيز أنه كان يقول (اثنان لا تعاتبهما، صاحب طمع وصاحب هوى ، فأنهما لا ينزعان) .

وعن ابن شوذب قال : سمعت عبد الله ابن القاسم يقول : (ما كان عبد على هوى تركه الا إلى ماهو شر منه...) [2] .

وأما المخطئ في اجتهاده، فالظن به أنه يرجع الى الحق عند ظهور الدليل ووضوحه، لأنه لم يصدر عن رأي ناسخ في نفسه وعقله ، بل صدر عن اجتهاد في الأدلة التي لديه، وكان خطؤه فيها من قبل نظره من قبل هواه .

قال الشافعي : (الحديث مذهبي فإذا صح الحديث فاضربوا بمذهبي عرض الحائط) وصح مثل ذلك عن بقية الأئمة الأعلام .

---

[1] راجع الاعتصام ج 1 / ص 123

[2] الاعتصام ج 2 ص 235 والخاصية المقصودة هي اتباع الهوى

وأما عن عاقبة كل منهما :

- فإن صاحب الهوى لا يقبل منه عمل لقوله صلى الله عليه وسلم : (**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**) [1] .

- كذلك فإنه يزداد من الله بعداً .

روي عن الحسن انه قال : صاحب البدعة ما يزداد من الله اجتهاداً صياماً وصلاة إلا ازداد من الله بعدا .

- كذلك فإنه يخشى الهوى المؤدي للبدعة مانع من شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، والبعد عن حوضه .

- كذلك فإنه يخشى على صاحبه سوء العاقبة ، ويكون ممن يسود وجوههم يوم القيامة ، حكى عياض عن مالك من رواية ابن نافع عنه قال :

لو أن العبد ارتكب الكبائر كلها دون الإشراك بالله شيئا ثم نجا من هذه الأهواء لرجوت أن يكون في أعلى درجات الفردوس ، لأن كل كبيرة بين العبد وربه هو منها على رجاء ، وكل هوى ليس منه على رجاء إنما يهوي بصاحبه في نار جهنم .

كذلك يتبرأ منه الله ورسوله والمؤمنون . قال تعالى **{ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ }** [2] .

وعن ابن عمر : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم وأنهم براء مني .

وجاء عن الحسن : لا تجالس صاحب البدعة فإنه يمرض قلبك .

كذلك فإن على متبع الهوى المؤدي للبدعة، إثم من عمل بقوله واتبعه إلى يوم القيامة لقوله تعالى : **{ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ }** [3] .

إلى غير ذلك من الآثار السيئة التي تعود على صاحب الهوى في الدنيا والآخرة .

وأما المجتهد المخطئ فإنه مأجور مثاب على اجتهاده كما في الحديث : (**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فاخطأ فله أجر**) [4] ، فالبون بينهما شائع وليرجع كل إلى نفسه حذر العاقبة .

---

[1] متفق عليه

[2] الانعام - 159

[3] النحل - 25

[4] جامع الأصول 10/ 171 وأخرجه البخاري ومسلم وزاد في روايته الترمذي (فله أجر واحد).

كذلك فإن صاحب المعصية خلاف القسمين : صاحب الهوى والمخطئ في اجتهاده .

فصاحب المعصية وإن صدر عن هوى في نفسه لتحقيق شهوة ، إلا أنه لم يفتعل دليلا يقيم به الحجة على صحة فعله خلاف صاحب الهوى .

وكذلك هو، وإن يطلب دليلاً على صحة فعله ، فإنه عارف بموطن الحق والصواب خلاف المخطىء في اجتهاده .

ومن الأهمية بمكان التمييز بين كل من الأنواع الثلاثة السابقة الذكر لمن يتصدى للدعوة بوجه خاص، ليكون علة بينة من أمره فيعامل كلاً بما يستحقه ، ويعالج كلاً بما يليق له من دواء .

ونصل إلى الضوابط التي يستطيع المسلم من خلالها أن يتحقق من بعده عن الهوى أو يتقي الوقوع في مهاويه ، او يستنقذ نفسه منه، إن كان قد ابتلى منه بشيء من التفصيل لكل منها على حدة حسب مايقتضيه الموضع وهي :

1- اتباع الكتاب والسنة 2.
2- اتباع منهج السلف الصالح .
3- اعتبار المتغيرات الواقعية .
4- التقوى والأخلاص .

أولاً- اتباع الكتاب والسنة :

كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هما مصدرا التلقي للمسلم في حياته كلها . وهما يشكلان القاعدة الرئيسية التي يقوم عليها التشريع الإسلامي في كل جوانبه ونواحيه .

ويقصد بدليل الكتاب الآية القرآنية .

ودليل السنة الحديث الشريف بمختلف درجاته المتفق على العمل بها .

والناس في الإتباع قسمان[1] لاثالث لهما :

أولهما من اتبع الشرع - كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - وفيه الهدى كله والخير كله .

---

[1] واتباع الحس والتجربة لم يذكره قسماً منفصلاً لأن ما يؤديه الحس والتجربة يعرض على العقل ليستنبط منه القواعد العامة ، كما أن معطيات الحس والتجربة مختصة في أغلبها بالأمور الطبيعية فلا مدخل لها هنا

قال صلى الله عليه وسلم : (**تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنة رسوله**)[1] .

ثانيهما : من اتبع العقل والتزم بما يؤديه اليه .

والعقل إما أن يكون مدفوعا بالهوى ، وهو ماتكلمنا عن أصله فيما سبق، وتبَيّن لنا ما فيه من مجانبة للحق وإضلالا للخلق .

وإما أن يكون مرتكناً على وضع مقدمات لازمة، والبناء عليها حسب الترتيب الذي يؤديه المنطق العقلي ، ثم التزام ما ينتج عن ذلك من نتائج دون اهتداء بوحي أو رجوع لشرع .

ومن هنا ضل من ضل من أصحاب الفرق التي اتخذت العقل شعاراً، وجعلته إزاراً، كالمعتزلة قديماً، وبعض من أطلق عليهم (المفكرون) حديثاً - وهو شعار خداع وإزار خلق بال ، إن رفعه من لا يفقه، أو ارتداه من ليس له بأهل .

ونحن لا ننكر أن الله تعالى قد شرف الإنسان بالعقل ، وميزه على سائر الكائنات به، ولذلك حمله الأمانة بعد أن عرضها على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان. ولا ننكر أن للعقل دوراً أساسياً في الإستدلال بآيات الله تعالى في الكون والإنسان وإليه نبّه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى { **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ**}[2]

{ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**}[3]

كما أنه بالعقل يُستدل على صحة النبوة وصدق الوحي وضرورتهما للخلق - كما هو عليه محققو أهل السنة والجماعة [4]

ولا ننكر أنه بالعقل يدرك الإنسان حكم التشريع وأسرار التكليف و علل ومصالح الأحكام ، فيعترف بقدر الوحي و علو الشريعة، ويبني بعد ذلك ما يمكن من الأحكام بالإجتهاد معتمداً على ما قرره الوحي من قواعد وطرق للإستدلال، و علل ومصالح للأحكام وتعرف عليها الإنسان بعقله ونظره .

ولاننكر أنه العقل هو مناط التكليف الذي بغيابه يرتفع التكليف عن الإنسان فلا يتعرض لحساب - ثواب أو عقاب - حتى يعود إليه العقل ، سواء كان غيابه جزئيا بالنوم أو الإغماء، أو كلياً

---

[1] جامع الأصول 277/1 وقال المحقق في الهامش أخرجه مالك في الموطأ بلاغاً ويشهد له حديث ابن عباس عن الحكم بسند حسن.

[2] آل عمران – 190

[3] الرعد - 4 النحل - 12 / الروم - 24

[4] راجع ابن تيمية مجموعة الفتاوي ج 13 ص 137 كمثال

بالجنون مثلاً ، فيفتح الملكان السجل ويأخذان في التسجيل، وهو مدلول حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(**رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يشبه ، وعن المعتوه حتى يعقل**)[1] .

بل إن هدم الأدلة العقلية مطلقاً هو هدم للشريعة، وإهدار للدين من أساسه ، بسبب ما تقدم ذكره، مما بناه الله تعالى من استدلالات في القرآن على صدق الوحي والنبوة والآيات المبثوثة، يقول ابن تيمية في الفتاوي :

(العلوم ثلاثة أقسام : منها ما لايعلم إلا بالأدلة العقلية ، وأحسن الأدلة العقلية التي بينها القرآن وأرشد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول ، فإن من الناس من يذهل عن هذا ، فمنهم من يقدح في الدلائل العقلية مطلقا لأنه قد صار في ذهنه أنها هي الكلام المبتدع الذي أحدثه من أحدثه من المتكلمين)[2] .

لا ننكر للعقل كل هذه المكانة الرفيعة ، ولكن قوما تجاوزوا تلك الحدود كلها فحكموه فيما لا يقدر عليه[3] ، إذ جعلوه ينظر نظرة مستقلة في قواعد الدين ومصالح الدنيا ، فما وصل إليه عرضوه على الشرع ، فان وافق الشرع فبها ونعمت، وكان العقل مثبتاً لما جاء به التنزيل ، وإن خالف الشرع قدم العقل وأطرح الشرع، إما بالتأويل أو التوقف أو الإنكار، ولاندري ماهي قيمة الشرع عند هؤلاء إن كان في حالة الموافقة والمخالفة للشرع فالعقل مقدم عليه !

تلك هي المجاوزة ، وهذا هو الإفراط والطغيان ، فقد اتخذ العقل ميزان الأمور هو أعجز ما يكون عن إدراك تفصيلاتها وتحديد صفة حقائقها مستقلا عن وحي السماء .

وكيف للعقل أن يدرك - وحده - مااتصف الله سبحانه به من صفات الكمال ونعوت الجلال وكيف للعقل أن يدرك - وحده - حقائق ما يلقاه الإنسان في قبره أو في يوم بعثه وعرضه، بل كيف للعقل أن يدرك - وحده - وجوه المصالح والمفاسد فيما يعرض عليه من أمور الدنيا ومصالح الناس على شدة التشابك والإختلاف بين تلك المصالح فيما هو عام منها أو خاص ، وفيما هو موقوف بزمان أو مطلق عن قيود الزمان ، وفيما يخص نوعي البشرية رجالاً وإناثاً!؟

ثم كيف لنا أن ندرك - بوجه قاطع - تخلص العقل من جرثومة الهوى التي تحدثنا مع خفائها ودقتها ، وهو الضعيف - وحده - أمام الشهوة والغريزة إن لم يستند إلى توفيق الله وهدايته ؟

---

[1] رواه أبو داود 4/ 560

[2] مجموع الفتاوى ج 13 ص 137 ، ويراجع كذلك حجة الله البالغة للهلوي ص 9

[3] فمنهج السلف كما قرره ابن تيمية - فيما يقوله أبو زهرة : (هذا هو منهاجهم ، وهو يجعل العقل سائرا وراء النقل، يفرزه ويقويه بالاستدلال ، بل يقرب معاني النصوص) تاريخ المذاهب الاسلامية - ابن زهرة 189 - دار الفكر .

ثانيا - اتباع منهج السلف في النظر والأستدلال :

عرفنا فيما تقدم أن دليل المسلم إلى الأحكام الشرعية كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد اختط لنا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلف أمتنا الصالح منهجاً مضبوطاً محدوداً في كيفية الإستدلال والاستنباط من دليلي الكتاب والسنة ، وطريقاً للنظر فيما ورد لنا من (نصوص) قرآنية أو حديثية .

وقد خالف أهل الأهواء ذلك المنهج في النظر والإستدلال . وسنذكر - بإيجاز شديد - طرق الزائغين في النظر للأدلة، لنتعرف من خلالها على طرق أهل الحق في النظر والإستدلال ، مستندين في ذلك بما اتبعه الشاطبي في الإعتصام فنقول، من طرق الزائغين في النظر للنصوص :

1- اتباع المتشابه و عدم رده الى المحكم:

والمحكم [1] هو الواضح البيّن الذي لا يحتاج في فهمه إلى ما سواه ، والمتشابه هو ما اشتبه على العقل فهمه واحتاج الى غيره من الأدلة لشرحه فمن المتشابه مالاسبيل إلى فهمه بالعقل كأوائل السور : فهذا يوكل علمه الى الله تعالى ، ومن المتشابه - حسب اصطلاح السلف فيه - العام والمطلق والمجمل والمنسوخ [2]

فالعام يُرَدّ إلى الإحكام باعتبار المخصص له .

والمطلق يُرَدّ الى الإحكام باعتبار المقيد له.

والمجمل يُرَدّ الى الإحكام باعتبار المبيّن له .

والمنسوخ يُرَدّ الى الإحكام باعتبار الناسخ له.[3]

فشيمة أهل الأهواء اتباع المتشابه - في أي من صوره - دون رده إلى المُحكم كما قال الله تعالى

{**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** } [4] .

2- عدم الجمع بين أطراف الأدلة :

وذلك يعني النظر إلى مجموعة من الأدلة لتؤدي إلى طرف ما ، مع غض النظر عن أدلة أخرى يمكن بالجمع بينهما أن يظهر الحكم العدل في الأمر.

---

[1] المصدر السابق / ص 156 وص 170 وص 184 حسب الترتيب

[2] راجع أصول الفقه لأبي زهرة / ص 123

[3] راجع رسالة الأكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية في مجموعة الفتاوي ج 13 / 270 وبعدها ففيها فائدة جمة وكذلك الأعتصام ج1 ص 239

[4] آل عمران - 7

فالشريعة - كما يقول الشاطبي - (ما مثلها إلا مثل الإنسان الصحيح السوي ، فكما أن الإنسان لايكون إنساناً حتى يستنطق، فلا ينطق باليد وحدها، ولا بالرجل وحدها، ولا بالرأس وحده، ولا باللسان وحده ، بل بجملته التي سمي بها إنساناً . كذلك الشريعة لا يطلب منها الحكم على حقيقة الإستنباط الا بجملتها ، إلا من دليل منها أي دليل كان ، وإن ظهر لبادي الرأي نطق ذلك الدليل ... فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضاً، كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة مثمرة .

وشأن متبعي المتشابهات اخذ دليل ما، أي دليل كان عفواً وأخذاً أولياً، وان كان ما يعارضه من كليّ أو جزئي، فكان العضو الواحد لا يعطي في مفهوم أحكام الشريعة حكماً حقيقياً فمتبعه متبع متشابه، ولا يتبعه إلا من في قلبه زيغ كما شهد الله به { **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا** }[1]

ومثال ذلك ما فعلته المرجئة ، فقد اعتمدوا على أحاديث الشفاعة وما ورد فيه (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) و غيرها من أحاديث الرجاء ، ولم يعتبروا من الأحاديث ما دل على ضرورة العمل وترتيب الثواب عليه .

يقول ابن تيمية : (وأكثر ما يكون ذلك لوقوع المنازعة في الشيء قبل إحكامه وجميع حواشيه وأطرافه)[2] .

---

[1] الإعتصام للشاطبي ج 1 ص 244 وبعدها
[2] اقتضاء الصراط المستقيم / 43

3- الإحتجاج بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة :

وتلك هي طريقة المبتدعة وأهل الأهواء، وهم في المقابل يردون الكثير مما صح من الأحاديث المنقولة بنقل العدول الثقات .

ومن أمثلة ذلك مافعلته الصوفية في حديث النصف من شعبان .

يقول رشيد رضا في تعليقه على ما ذكره الشاطبي من أن صيام ليلة النصف من شعبان وقيامها من البدعة : هذا هو الصواب ولا يغترن أحد بترغيب الخطباء الجاهلين في ذلك، ولا بالحديث الذي يذكرونه على منابرهم وهو (إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموها نهارها ، فإن الله ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا فيقول : ألا من مستغفر فأغفر له ، ألا من مسترزق فارزقه، الا مبتلى فاعافيه، ألا كذا ألا كذا، حتى يطلع الفجر) فإن هذا حديث واه أو موضوع رواه ابن ماجه وعبد الرزاق عن أبي بكر ابن عبد الله ابن أبي عبرة ، وقد قال فيه ابن معين والإمام أحمد أنه يضع الحديث) هامش الاعتصام 1/ 39

ومثل حديث تواجد الرسول صلى الله عليه وسلم عند السماع حتى سقط رداؤه، وهذا حديث واه ولا أصل له .

وفي المقابل غلت المعتزلة في ردّ الأحاديث الصحيحة بحجة أنها لا تعقل، مثل إثبات الصراط والميزان والحوض ورؤية الباري في الآخرة . وقد تتشبث بما روي من أحاديث عن العقل وأنه هو الحكم الأول والأخير وكلها أحاديث غير صحيحة .

4- عدم رد الفروع الجزئية إلى القواعد الكلية :

فمما لا شك فيه أن الشريعة تقوم على قواعد كلية عامة معتبرة في كل الفروع التي هي الأحكام التفصيلية للشريعة. وقد بين الأئمة - من مختلف مذاهب الفقه - تلك القواعد العامة في بعض ماكتبوه - إذ أن ذلك لايختلف باختلاف المذاهب الفقهية - ومن أمثال ذلك الأشباه والنظائر للسيوطي ومثله لابن نجيم الحنفي ، وما تفرق منها في كتابات ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله .

وعدم النظر في القواعد الكلية عند اعتبار الحكم الجزئي يؤدي إلى خلل كبير في الفتوى . فالشريعة أشبه بالبستان المتعدد الشجر ، كل شجرة لها جذر ضارب في الأرض وفروع وثمار طازجة في الهواء ، ومهما تعددت الفروع والثمار، فإنها ترتد إلى جذر واحد تقوم عليه وتستمد منه . وتلك الجذور الضاربة في الأرض في القواعد الكلية التي يقوم عليها بناء الشريعة .

مثال : إن اليقين لايرفع بالشك ، ولكن بيقين مثله .

ومن فروع هذه القاعدة : أن من يتقين أنه قد توضأ للصلاة ثم شك بعدها لعله نقض هذا الوضوء أم لا، فالأصل أن يبني على الوضوء لأنه متيقن ونقضه مشكوك فيه إلا إن أراد الاحتياط فيعيد الوضوء ، ولكن لا يلزمه ذلك وجوبا .

مثال آخر : إن الضرر يزال وهو قاعدة عامة مضطردة في الشرع ومن فروعها : الرد بالعيب ، والحجر بأنواعه وأحكام الشفعة و غيرها من أبواب الفقه .

وقد بني عليها قاعدة أخرى هامة وهي أن الضرورات تبيح المحظورات .

وغير ذلك من قواعد كلية كقاعدة رفع الحرج ، وقاعدة أن الأصل في الأشياء الأباحة وأن الأصل في الأبضاع التحريم ..[1] .

وطريق الزائغين هو النظر إلى كل فرع على حدة دون الرجوع إلى القاعدة التي بني عليها منع التقارب والخلاف المنزه عن الشريعة بنص كتاب الله في قوله تعالى { **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** }[2].

ومما لا بد من الإشارة اليه هنا في قضية اتباع السلف الصالح أن الأحاديث قد نصت على افضلية القرون الثلاثة الأولى، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**أفضل القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**) .

ففضل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين فضل منصوص عليه ، ولا حجة لمن يتنكب عن طريقهم السوي ، والاهتداء بأقوالهم وفتاواهم في مختلف مجالات الحياة ، والرجوع إلى تلك الأقوال والفتاوى ليس تقليداً كما يزعم فروخ الخوارج في هذا العصر، بل هو محض اتباع السنة والعمل بالحديث ، ودليل صحة الفهم، وضابط من ضوابط السلامة، إذ هم الأقرب من عهد النبوة المشرق المفعم بالإيمان ، وهم أهل اللغة الذين استقامت ألسنتهم في عهد قوة اللغة والعناية بها. وهم المجاهدون العاملون العالمون الذين تربوا على يد سيد المرسلين صلى الله

---

[1] يراجع الأشباه والنظائر للسيوطي و النظائر للسيوطي الضافعي وابن نجيم الحنفي المصري .

يقول ابن تيمية : (ونحن نذكر قاعدة جامعة في هذا الباب لهم ولسائر الأمة فنقول : لابد أن يكون مع الانسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم و عدل ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت ، وإلا فيبقى في كذب وجهل بالجزئيات ، وجهل وظلم في الكليات فيترك فساد عظيم) المنتقى من منهاج اعتدال / ص 320 .

يرجع في ضبط هذا الأمر (وهو الجزئي والكلي) إلى الموافقات ج 3 ص 260 وبعدها كتاب الأدلة

[2] النساء : 82

عليه وسلم إن كانوا من الصحابة أو على أيدي الصحابة، أو كانوا من التابعين ، أو على أيدي التابعين إن كانوا من تابعيهم ، فهو فضلٌ من فضلٍ من فضلٍ { **ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ**}[1]

ثالثا : اعتبار المتغيرات الواقعية :

الإسلام دين يقوم على الواقعية ، وهي خصيصة هامة من خصائصه. والواقعية تعني أنه دين لا يتعامل مع فروض نظرية مجردة ، أو أمور خيالية بعيدة عن التطبيق في أرض الواقع . بل يتعامل - في جوانب الحياة التي يتناولها من عقيدة ومعاملات بشرية في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع - مع الانسان بكل ما فيه من قوة وضعف ، معتبراً قدراته التي خلقها الله سبحانه منزل الشرع .

وحقيقة أن الله سبحانه هو خالق الناس ، وهو كذلك منزّل الشرع الذي ينظم حياة الناس ، تفرض أن تكون أحكام الشرع متسقة مع القدرات المخلوقة في الإنسان فتعالج نواحي الضعف فيه ، وتلبي حاجات الغريزة المركوزة في فطرته ، وتسمو بنواحي الرقي والقوة التي يتمتع بها سواء في الروح أو البدن .

يقول الشهيد سيد قطب في (خصائص التصور الإسلامي):

(والخاصية السادسة من خصائص التصور الإسلامي هي الواقعية. فهذا تصور يتعامل مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود المستيقن، والأثر الواقعي الإيجابي، لا مع تصورات عقلية مجردة ، ولا مع مثاليات لا مقابل لها في عالم الواقع أو لا وجود لها في عالم الواقع) [2].

ومن هذا المنطلق ذاته كانت الفتاوي الشرعية تبنى على أمرين معاً :

1- الحكم الشرعي الأصلي .
2- الواقع المراد تطبيق الحكم الشرعي عليه وهو ما يسميه علماء الأصول (تحقيق المناط).

وكمثال فإن حكم الخمر التحريم وهذا حكم أصلي . فإذا وجدنا مشروباً ما وسأل احد المسلمين عن حكم تناوله وجب على المفتي أن يتعرف على نوع المشروب في الكأس، فإن كان خمرا أفتى بالتحريم .

وكذلك شرط الله سبحانه العدالة في الشهود، ولكنه لم يعين فلاناً بعينه هل هو عدل أم لا. لذلك وجب على القاضي أن يتحقق من عدالة الشاهد بعينه حتى يمكن قبول شهادته [3].

---

[1] الجمعة - 4
[2] خصائص التصور : سيد قطب - ص 192
[3] راجع ابن تيمية : مجموعة الفتاوى 13 / 249

وهذا الأمر - وهو تحديد الواقع تحديداً دقيقاً - يتوجب على من تصدّر للإفتاء في أي أمر من أمور المسلمين أن يفطن إليه ، وأن يراعيه مراعاة تامة< فان من أدرك حكم الله سبحانه ولم يدرك الواقع المراد التطبيق عليه فقد أخطأ الفتوى، ومن أدرك حقائق الواقع المعروض عليه ولم يعرف حكم الله سبحانه في أمثالها فقد أخطأ الفتوى، ولذلك قال العلماء بتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال [1]

وعدم تطبيق الحكم على واقعه الصحيح هو من طرق الأهواء ، بل من تحريف الكلم عن مواضعه .

يقول الشاطبي : (تحريف الأدلة عن مواضعها ، أن يرد الدليل على مناط ، فيصرف عن ذلك المناط الى أمر آخر موهماً أن المناطين واحد ، وهو من خفيات تحريف الكلم عن مواضعه والعياذ بالله .

ويغلب على الظن أن من أقر بالإسلام ويذم تحريف الكلم عن مواضعه ، لا يلجأ إليه صراحاً إلا مع اشتباه يعرض له ، أو جهل يصده عن الحق ، مع هوى يحميه عن أخذ الدليل مأخذه فيكون بذلك السبب مبتدعاً) [2]

والظن بمن وقع في مثل هذا الاشتباه يعرض له ، أنه يرجع عنه عند بيان الدليل ، وأن المناطين مختلفان، والواقعين متغايران، فإن أبى فهو الجهل والهوى المؤدي للبدعة .

فالواجب الشرعي للمسلم القوي المتمكن إزاء قوى الشرك والطغيان ، خلاف واجبه الشرعي في حالة ضعفه وقلة أنصاره.

وواجب المسلم إزاء الطغيان في عصر من العصور أو بلد من البلدان، خلاف واجبه في عصر آخر أو بلد آخر.

وحيثما يتغير واقع المسلم - لأي سبب من الأسباب - يكون واجبه مكافئاً لواقعه الجديد ومتطلباته . ومن هنا قال العلماء إن تحقيق المناط وهو تنزيل الحكم على الواقع و استنباط الفتوى - هو صورة من الإجتهاد الشرعي لا تنقطع حتى نهاية الدنيا . [3]

ويبرز من خلال هذه النقطة الفائدة العظمى التي يجنيها المسلمون من دراسة الأمر الواقع - بكل ناحية من نواحيه - دراسة تامة واعية مبنية على أسس سليمة ، إن أرادوا أن يقيموا أمر الله بينهم في كل أمر من أمورهم ، وإلا فهو التخبط والضياع. كذلك يبرز مدى الخطأ الذي يرتكبه من تصدر للإفتاء في شؤون المسلمين وشؤون الدعوة على حد سواء ، ولم يتحقق بكل ما ينبني عليه من نتائج بالنسبة للأفراد أو المجتمعات تحققاً تاماً .

---

[1] راجع ابن القيم في اعلان الموقعين / ج 3

[2] الاعتصام للشاطبي 1/ 249

[3] راجع الموافقات ج 3 / ص 89 كتاب الاجتهاد المسالة الأولى

بل إن تحديد حجم ذلك الواقع المعادي - أو الواقع المصاحب على السواء - من عوامل صحة الفتوى ودقة تحديث الطريق ، وسرعة الوصول للهدف ، تماماً كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق، حين اختار البقاء في المدينة وحفر الخندق حولها، كأسلوب بديل للأسلوب المعتاد في المواجهة آنذاك ، لما عرف حجم العدو الزاحف إليه ، فكان أسلوبه مكافئاً للواقع الماثل أمامه، دون تهويل أو تصغير .

رابعا : التقوى والأخلاص

ذلك أن من اتقى الله وأخلص النية له سبحانه ، هداه الله إلى الحق ، وأنار طريقه إليه وأرشده إلى الهدى والصواب بفضل منه ورحمة. وليس فقه من أتقى وأصلح وأخلص كفقه من كان علمه عن جفاف قلب أو سوء طوية .

قال تعالى : { **يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ** } [1]

وقال تعالى : { **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ**} [2]

وقال تعالى { **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** } [3]

ولا نعني بالتقوى والإخلاص كثرة العبادة ، فإن الخوارج كانوا أكثر الناس عبادة، ولكنهم كلاب أهل النار وقد صح فيهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**... تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم الى صيامهم يقرؤون القرآن لايتجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**).

بل المقصود هو ذلك النور الذي يقذفه الله في قلب العبد ، إذ علم ما فيه من معاني الخوف والتوكل والرجاء والمحبة لله سبحانه ، وبهذا النور ينكشف أمام العبد وجه الحق في المسألة بمجرد رؤية الدليل ، فيهتدي حيث يضطرب الناس ، ويعرف الدليل الصحيح حيث يشتبه الأمر على الناس ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء. يقول الشاطبي في شرح هذا المعنى : (... وهو في الحقيقة ناشئ عن التقوى المذكورة في قوله تعالى { **إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا** } (4) ، وقد يعبر عنه بالحكمة ويشير إليها قوله تعالى

{ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**} [4] .

---

[1] الحديد - 28
[2] الأنعام - 122 (4) الأنفال - 29
[3] الأنفال - 29
[4] البقرة - 269

وقال مالك : إن الحكمة مسحة ملك على قلب العبد .

وقال أيضاً : يقع بقلبي أن الحكمة الفقه في دين الله ، وأمر يُدخله الله القلوب من رحمته وفضله[1].

وهذا الأمر الخاص، كما أسماه الشاطبي، هو مايستدل به الفقيه بنور من الله - إن اتقى وأخلص - إلى الحق فيتبعه ، ويظهر له موطن الهوى فيتجنبه .



[1] الشاطبي : الموافقات 4 /97 .

المبحث الثاني

التعصب

وهو شيمة من شيم الضعف ، وخلة من خلل الجهل، يبتلى بها الإنسان، فتعمي بصره وتغشي على عقله ، فلا يرى حسناً إلا ما حسن في رأيه ، ولا صواباً إلا ماذهب إليه أو من تعصب له.

وقد نسبناه للضعف لأن النفس القوية لاتهاب ولا تحذر ولا تشفق إلا من الحق ، والتشبث برأي أو اتجاه - واعتبار كل ماعداه باطلاً لايستحق أن ينظر فيه أو أن يستمع له – لا يكون إلا من هيبية الرأي المخالف، وحذراً من أن يظهر فيه بعض الحق مما ينقض مذهبها ، وإشفاق على النفس أو يتبين خطأها فيما تعتقده .

ولذلك نرى أن التعصب غالباً ما يندثر بداء القوة يظهر فيه، ويستبد بالإشتمال عليه، ليخفي من ورائه ضعفاً متوازياً أمام الحق، وحذراً وإشفاقاً من المخالفة والخطأ .

فالمتعصب قوي في ظاهره، بما يبديه من تشبث برأيه، ورفض قاطع لما يخالفه، دون تمحيص ولاروية ، ولكنه - في حقيقة أمره - ضعيف بخوفه وهيبته وإشفاقه .

ونسبناه للجهل، لأن العقل العالم المدقق لا يفتر عن البحث عن الحق والصواب، ومراجعة نفسه ، وترديد النظر في أقواله ومذاهبه ، لعلمه بأن النقص هي ميزة البشر الأولى التي جبل عليها ، وأن الكمال لله تعالى وحده، والعصمة لرسوله صلى الله عليه وسلم ولذلك قيل : (لايزال المرء عالماً، حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل) .

والتعصب فرع العصمة الذي لا ينفك عنه ، وادعاء العصمة فيه ما فيه من خلل في الرأي ومجانبة للحق ، وعنه نشأت فرق كالرافضة، خرجت عن خط الإسلام السوي المستقيم الذي يضع الإنسان - كل انسان - في موضعه الصحيح من النقص والكمال ومن الخطأ والصواب.

فالضعف والجهل - إذن - هما جناحا التعصب ضعف النفس وجهل العقل[1] .

والتعصب عند الإطلاق ظاهرة ذميمة لا تؤدي إلا إلى التفرق والتعادي (وهو من خصال أهل الكتاب، التي تكون في هذه الأمة .

قال تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ}[2] فوصف اليهود بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور النبي فلما جاءهم من

---

[1] والجهل المقصود هنا ليس بمعنى قلة التحصيل فقط بل بمعنى قلة التحصيل عموماً و التحميل في اتجاه واحد أو ضيق الأفق وقصر النظر ... وكلها جهل

[2] البقرة - 91

غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له ، وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة في العلم أو الدين أو إلى رئيس معظم عندهم ، فأنهم لا يقبلون من الدين – لا فقهاً ولا رواية - إلا ماجاءت به طائفتهم) [1] .

ويقابل التعصب الثبات على الحق والتمسك به. وقد يتقارب المعنيان فلا يتميزا إلا في نظر المدقق الفاحص. وقد يخلط بينهما، فترى البعض يمدحون التعصب على أنه دلالة قوة إيمان ورسوخ عقيدة ، بينما ترى البعض الأخر يذمون المتمسك بالحق الثابت عليه، ويرمونه بالجمود والتعصب ، والحق أن البون شاسع بين المعنين في المنشأ والطريق والثمرة .

فمنشأ التعصب ضعف في النفس وجهل في العقل ، بينما التمسك بالحق ينشأ من القناعة بالرأي ووضوح الدليل .

وطريق المتعصب هو الصد عن معرفة دليل المخالف، أو الإستماع إليه، أو اعتباره في النظر بأي وجه من الإعتبار .

بينما طريق المتمسك بالحق المناقشة الحرة والإستماع إلى دليل المخالف برحابة صدر واتساع أفق ، والرد المشفق الذي يرجو هدى المخالف ولاينتظر سقطته .

وثمرة التعصب الإختلاف والفرقة والتباغض ، وثمرة التمسك بالحق اجتماع المؤالفين عليه واتحادهم ومراجعة المخالفين لمنهاجهم ، ثم نور في القلب يضيء لصاحبه الطريق ويهديه الصراط المستقيم .

كما أن لكل من التعصب والتمسك بالحق مجالاً وحدوداً. ففي أصول الدين وقواعده الثابتة المتواترة وماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لامجال لتهاون أو تسامح ، بل الإعتصام بالحق إلى أقصى حدوده هو المطلوب المحمود - أما فيما يسوغ فيه الخلاف من مسائل الفقه التي تحتمل تعدد اوجه النظر - فان الثبات على الحق[2] لاينافي التسامح أو الموالفة أو احترام اجتهاد الغير .

---

[1] ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم - 8

[2] قال الشوكاني : (فالحق الذي لا شبهة فيه ولا شك أن الحق واحد ومخالفه مخطىء مأجور، إذا كان قد وفى الاجتهاد حقه ولم يقصر في البحث) انظر: إرشاد الفحول / 262 ، وقد استدل بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب له أجران وان اجتهد فأخطأ فله أجر ، وقد نقل هذا القول عن مالك والشافعي وأبي حنيفة وأكثر الفقهاء . (المصدر السابق / 261). والمقصود بأن الحق واحد من في المسائل الإجتهادية الإجتهادية التي لا نص فيها. أما ما جاء من اختلاف التنوع مثل أنواع الإستفتاح أو التشهد أو غير ذلك في أحاديث صحيحة، فالحق فيه هو كل هذه الوجوه .

يعرف الشوكاني التعصب فيقول : (بأن تجعل ما يصدر عنه الإمام المتبع من الرأي، ويروي له من الإجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد ، فأنك إن فعلت ذلك كنت قد جعلته شارعاً لا متشرعاً، ومكلِفاً لا مكلفاً)[1] .

وما قصده الشوكاني هو المتعصب لرأي إمام مجتهد أو عالم من علماء الشريعة .

فالمتعصب إما أن يتعصب لرأي إمام مجتهد أو عالم فقيه .

أو أن يتعصب لرأي من يحسبه كذلك وهو ليس بذاك .

أو أن يتعصب لرأيه الشخصي ونظره الذاتي .

والثلاثة كلها سوء ولا تؤدي إلا إلى آفات التعصب البغيضة. فالمسلم الذي ليس عنده قدرة على البحث والنظر في الأدلة الشرعية وليس مؤهلاً لذلك، إن سأل عالماً تقياً وقلده أو اتبعه فيما أجاب به هذا العالم ، فلا بأس عليه. ولكن إن خرج به ذلك إلى التعصب و تسفيه آراء الآخرين المستندة إلى الكتاب والسنة، أو إلى مذهب لأحد الأئمة الأعلام، فتلك هي الآفة التي يجب الحذر منها. فالعالم المقلد ليس بمعصوم، بل إن كبار الأئمة قد حذروا الناس من ذلك وحثوهم على ألا يتعصبوا لأقوالهم. ولكن المُقلد قد يحيك في نفس أحدهم أن كلام إمامه خطأ، ولكنه يتوقف في رد ذلك لإعتقاده أن إمامه أكمل منه علماً وعقلاً وديناً، وهذا مع علمه أن إمامه ليس بمعصوم [2] .

أبان شيخ الإسلام عن أهم حجة يتمسك بها المتعصب في مواجهة الحق، وهي اعتقاده بكمال إمامه فيتخذ خطأه صواباً ، وينحرف عن الطريق السوي دون أن يدري ، (فإن الحق يستحيل أن يكون وقفاً على فئة معينة دون غيرها، والمنصف من دقق في المدارك غاية التدقيق) [3] .

أما من تمسك برأيه الشخصي واجتهاده فهو بين أمرين:

- إما أن يكون من أهل الإجتهاد والذين تحققت فيهم الشروط المعروفة عند العلماء[4] ، فهذا غير ملوم ولا مذموم بل الواجب عليه أن يتمسك برأيه وبما وصل إليه باجتهاده الذي هو الحق في ظنه .

---

[1] أدب الطلب الشوكاني

[2] ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل 155

[3] جمال الدين القاسمي : قاعدة في الجرح والتعديل 32 .

[4] ذكر العلماء الشروط الواجب توفرها في المجتهد المطلق - وهذه الشروط تخفف عندما يكون الاجتهاد في دائرة محصورة - وقد اجملها الشوكاني في (إرشاد الفحول) بما يلي :

الشرط الأول : (أن يكون عالماً بنصوص الكتاب والسنة فإن قصر في أحدهم لم يكن مجتهداً ولايجوز له الإجتهاد ولا يشترط معرفته بجميع الكتاب والسنة بل بما يتعلق منهما بالأحكام)

وهذا شريطة أن يسير على نهج المتمسك بالحق لا المتعصب كما أسلفنا، وإما أن يكون ممن لم يؤهل للاجتهاد، ولم يرفع بالعلم رأساً، بل غاية أمره أنه اطلع على ورقات أو كتيبات من هنا وهناك ، واستمع إلى بعض الآراء من هذا العالم أو ذاك ، وأدار بعض المناقشات مع أترابه ونظرانه ممن فتنوا بالعلم، فاعتقدوا أن تحصيله هيّن سهل لايحتاج إلا القليل من الإطلاع والنظر في كتب الأقدمين، ثم تكديس الكتب بالبيوت ، وأنه بذلك تكتمل لهم القدرة على الفتوى، بل وعلى رد أراء الأئمة الأعلام ، بدعوى الفرار من التقليد ، فهؤلاء حالهم أسوأ ممن سبقهم من المقلدة ، وترى التعصب فاشياً بينهم إلى أقصى مداه. فالمقلد للمجتهد - وإن تعصب له - فالاحتمال قائم في أن يصيب قوله الحق، فيكون ممدوحاً على إصابة الحق بفعله مذموماً لتعصبه.

أما من تعصب لقول نفسه دون أن يكون ممن تحلى بالعلم بالمطلوب فهو أولاً مذموم لتعصبه، ثم مذموم لعدم اتباعه من أمر باتباعه من أهل الذكر العالِمين كما هو مفروض عليه. ثم إن

ولنا تعليق في هذا الصدد ، فقد نقل الفضلاء أنه يمكن لأي من الناس الإجتهاد والفتوى إن أحرز بعض مصنفات الحديث، وبعض كتب الجرح والتعديل. وتناقل بعض من تتلمذ عليه واشاعه، مما أدى إلى عواقب وخيمة تعاني منها الدعوة الإسلامية أيما عناء ، وقد قابلت تلك الدعوة بعض النفوس التي هُيأت للتفلت واستمرأت التطاول، فتناست قدر نفسها وغمطت حق غيرها . وقد أحسن الشوكاني في فصل هذه المسألة فقال : (والحق الذي لاشك فيه ولا شبهة أن المجتهد لابد أن يكون عالماً بما اشتملت عليه مجاميع السنة التي صنفها أهل الفن كالأمهات الست وما يلحق بها من المسانيد والمستخرجات، ولايشترط في هذا أن تكون محفوظة له مستحضرة في ذهنه بل يكون ممن يتمكن من استخراجها من مواضعها بالبحث عنه وأن يكون له تمييز بين الصحيح منها والحسن والضعيف، ويتمكن من معرفة حال الرجال وما هو مردود وماهو قادح في العلل وماهو غير قادح) إرشاد الفحول / 251

الشرط الثاني : أن يكون عارفاً بمسائل الإجماع حتى لايفتي بخلاف مواقع الإجماع عليه . الشرط الثالث : أن يكون عالماً بلسان العرب بحيث يمكنه تفسير ماورد في الكتاب والسنة من الغريب ، ولايشترط أن يكون حافظاً لها عن ظهر قلب بل متمكناً من استخراجها من مؤلفات الأئمة .

الشرط الرابع : أن يكون عالماً بعلم أصول الفقه ، وعليه أن يطوّل الباع فيه، ويطلع على مختصراته ومطولاته فإن هذا العلم هو عماد فسطاط الاجتهاد وأساسه الذي تقوم عليه أركان لبناته، وهو أهم آلة في يد المجتهد . والشوكاني من كبار المحدثين وممن شدد النكير على التقليد وهاهو ذا يبين ضرورة علم الأصول لمن رام الإجتهاد .

الشرط الخامس : أن يكون عارفاً بالناسخ والمنسوخ بحيث لايخفى عليه شيء من ذلك، مخافة أن يقع في الحكم بالمنسوخ ، انظر أيضاً : الموافقات للشاطبي ج4 كتاب الاجتهاد وغياب الأمم للجويني / 400 والمستصفى للغزالي 350/2 . وما ذكرناه آنفا من الشروط هي مايجب توفره في المجتهد المطلق الذي يدلي في كل مسألة برأي، ويُلجأ إليه في الحوادث المستجدة، ويفتي فيها بما يوافق أصول الكتاب والسنة ومقاصدهما ، ولكن ذلك لا يمنع من وجود مجتهد المسألة، وهو من تمكن من دراسة معينة بذاتها دراسة وافية بكل ادلتها وما يدور حولها من مسائل خادمة لها في اللغة أو الأصول فيمكنه أن يفتي فيها بناءاً على علمه ذاك شريطة أن يكون قد استقصى الأمر من كل جوانبه . انظر إحكام الأحكام للآمدي 221/4 .

إصابته للحق احتمالها قليل ، فهو مذموم كذلك لاتباعه مالم يغلب على الظن ، وماهو خطأ في غلبة الظن .

وأما من قلد من ليس بعالم أصلاً، فهذا قد جمع الشرين ، إذ هو مأمور أن لايتبع إلا من وثق بعلمه وشهد له بذلك ، فقد ذكر العلماء أن مجهول الحال الذي لا يعرف عنه علم أو جهل ، لايصح تقليده. ويحسن بنا ان ننتقل من هذا المقام حتى نقول كلمة حق تختص بهذه المسألة ، وهي مسألة الإجتهاد والتقليد ، لأن هذه المسألة ودون ضبطها وتحريرها أدت إلى كثير من الخلط والإضطراب وإلى المزيد من التفرق والتشتت. وهي مسألة ليست بعيدة عما نحن فيه من دراسة التعصب فإن التعصب فرع عن التقليد. وكما أنه قد نشأ عن دعوى التفلت وإباحة الاجتهاد لمن شاء بحجة ذم التقليد، أن تبعثرت الجهود وتفتت الدعوة وادعى الأصاغر العلم ، كذلك فإنه قد نشأ عن الجمود والتمسك بقول من يعتقد فيه العلم - دون دليل حقيقي - ان ظهرت طائفة ممن عموا وصموا عن الحق الواضح المستبين الذي لاتنكره إلا العين الكليلة، بل العمياء، وكلا الأمرين شر لابد من دفعه بكل وسيلة.

والمعايش للدعوة الإسلامية في حاضرها يرى كم جر كل من الاتجاهين إلى نكبات وويلات. والغريب في الأمر أن سبيل التفلت هو سبيل دعاة الجمود سواء بسواء ، فإن داعي التفلت - بأي حجة كانت - إنما يبدأ بالانكار على من نصحه باتباع شرائط العلم الصحيحة، والوقوف عند الحد الذي أوقفه الله عنده ، ثم ينتهي آخر أمره إلى الجمود، إما على رأيه أو على رأي من هو على شاكلته، ممن زين له هذا الطريق أو توسم فيه العلم دون حق ! فلابد إذن من محاولة البيان، على قدر الجهد والطاقة والإمكان .

إن منهج أهل السنة والجماعة هو الاعتدال والوسطية ، بينما النظر إلى الأمور من زاوية واحدة، أو التطرف في الآراء إلى أحد أطرافها، ليس بمنهج الاعتدال والوسطية :

أولاً : وقد وردت عن الأئمة الأعلام نقول كثيرة تفيد ذم التقليد والمقلدين نجتزىء منها بعض ما ذكره الإمام ابن القيم في اعلام الموقعين) قال :

(وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم ، ونهوا من أخذ أقوالهم بغير حجة ، فقال الشافعي : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل ، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه، وهو لايدري. ذكره البيهقي .

وقال أبو داود : قلت لأحمد : الأوزاعي هو أتبع من مالك ؟ قال : لاتقلد أحداً من هولاء ، ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخذ به ، ثم التابعي بعدُ، الرجل فيه مخير .

وقال بشر بن الوليد : قال أبو يوسف : لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا .

وقال ابن مسعود : لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً، إن آمن آمن وإن كفر كفر فإنه لا أسوة في الشر.

قال الشنقيطي (ومعلوم أن المقلد الصرف لا يجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء) (1)

ثانياً : كما وردت النقول والآثار عن الأئمة، تذم القول على الله بغير علم ، بل كان العديد منهم يتحرج من الفتوى، ويحيل السائل على غيره من العلماء حتى يطوف الواحد بجمع من العلماء حتى يرجع الى اول عالم استفتاه .

نقل ابن القيم في (إعلام الموقعين) في باب تحريم الافتاء في دين الله بغير علم والإجماع على ذلك، وذكر قول الله تعالى { **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**} (2) وأن ذلك يتناول القول على الله بغير علم في أسماءه وصفاته وشرعه ودينه .

وذكر حديث أبي هريرة المرفوع : (**من أفتى بفتيا غير ثبت فإنما إثمه على من أفتاه**)

وقال الزهري عن خالد ابن أسلم وهو أخو زيد ابن أسلم : خرجنا مع ابن عمر نمشي، لحقنا أعرابي فقال : أنت عبد الله بن عمر ؟ قال : نعم . قال : سألت عنك فدللت عليك ، فأخبرني : أترث العمة ؟ قال : لا أدري ، قال : أنت لا تدري ؟ قال : نعم ، اذهب الى العلماء في المدينة فأسألهم ، فلما أدبر قبل يديه وقال : نعما قال أبو عبد الرحمن ، سئل عما لايدري فقال لايدري.
.

وقال أبو حصين الأسدي : إن أحدهم ليفتي في المسألة، ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر .

وقال ابن جبير : ويل لمن يقول لما لا يعلم اني أعلم [1] .

وقال في موضع آخر : (فوائد تتعلق بالفتوى مروية عن أحمد : الفائدة الرابعة والعشرون ...

قال في رواية ابن صالح : ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالما بوجوه الأسانيد الصحيحة ، عالما بالسنة ، وقال في رواية أبي الحارث : لاتجوز الفتيا إلا لرجل عالم بالكتاب والسنة ، وقال في رواية ابن حنبل : ينبغي لمن أفتى أن يكون عالماً بقول من تقدم وإلا فلا يفتي) [2] .

ومن تأمل هذين الأصلين العظيمين، اللذين أفاض فيهما الأئمة وجب عليه أن يجمع بينهما، حيث أن ظاهرهما قد يوهم التناقض، خاصة عند من لم يحقق معنى الإجتهاد والتقليد وحدودهما وشروطهما. اذ كيف يتأتى لمن لم يُحصل العلم اللازم أن يفتي وقد حذرناه من القول على الله بغير علم، ونهيناه عن التقليد واتباع الرجال، إلا أن يقول بالهوى والتشهي، وهو منهي عنه بالاجماع؟

---

[1] اعلام الموقعين : 184/2 وبعدها
[2] المصدر السابق : 4/ 215

وطريق هذا الجمع هو اعتبار الاختلاف في نوعية المسائل من جهة، واختلاف درجة المستفتي من جهة أخرى .

فمن المسائل ما لايصح فيها التقليد على الاطلاق، وهي مايتعلق بتوحيد الله عز وجل في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، لأن ادلة هذه مستفيضة واضحة لتعلقها بأصل الدين. وقد جعل الله سبحانه أدلة هذه الأمور من الوضوح بحيث لاتحتاج إلا الى النظر المنصف . أما مسائل الفروع فهي على قسمين :

قسم اشتهرت أدلته واستفاضت بحيث لا تخفى على مسلم، كوجوب الصلاة وصوم رمضان وتحريم الزنا والخمر، فهذا لا يجوز تقليد أحد على خلافها.

وقسم محل نظر المجتهدين، فهو مأجور مرة أو مرتين ، فهذا القسم هو الذي يجوز لمن يحصل أدوات البحث والنظر أن يسال عالماً تقياً فيتبعه في ذلك. وأما المجتهدون - بكافة درجاتهم - فلا يحق لهم إلا اتباع الدليل الذ اعتقدوه، وليس لأحد قول مع قول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أمثلة من التعصب :

زخر تاريخ الإسلام بأمثلة وضيئة من اتباع الحق وعدم التعصب للرأي والتسامح والاعتدال في الفهم. كما شابت وضاءته بعض الأمثلة من التعصب والغلو والتطرف في الرأي والمذهب. فابن الجوزي الحافظ الذي يعد من علماء الحديث قد اتخذ موقفاً منصفاً حين عرض لطائفة من أهل الحديث الذين لبّس عليهم إبليس بخدعه وتخيلاته ، قال يصفهم : (يسعون وراء الأسانيد العالية والمتون الغريبة، مع انشغالهم بهذا عما هو فرض عين من معرفة ما يجب عليهم، والاجتهاد في أداء اللازم والتفقه في الحديث) [1]

ومن هؤلاء ابن تيمية . فعندما ذكر أصناف الناس الذين يظنون عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان أصول الدين قال : (وهذا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفقهة والمتصوفة) [2] فلايمنعه أنه من أهل الحديث من ذكر أخطائهم .

بينما نرى ابن تيمية يقول : (هذا وأنا في سعة الصدر لمن يخالفني فإنه وإن تعدى حدود الله في بتكفير أو افتراء أو عصبية جاهلية فانا لا اتعدى حدود الله فيه ، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل) [3] .

---

[1] تلبيس إبليس / 114
[2] درء تعارض العقل والنقل 128/1
[3] الفتاوى 3/ 245

كما نهج (ابن الالوسي) في كتابه (جلاء العينين) [1] منهاجاً خالياً من التعصب، ملتزماً بالاعتدال، أنصف فيه ابن تيمية من شانئيه ومعارضيه الذين أسرفوا عليه وعلى أنفسهم في نقده والنيل منه وعلى رأسهم ابن حجر الهيثمي ، فكلام ابن حجر هو عين التعصب المقيت. فقد قال بابن تيمية كلاماً لايقوله عالم ، لأن العلماء لاينقدون بالسباب والشتائم .

ومن أمثلة التعصب كلام السبكي في ابن تيمية فقد عد من نقائص ابن تيمية أنه خالف المذاهب الأربعة في بعض المسائل ، وهذا حق له لأنه مجتهد. وقد خالف السبكى ما ارتضاه هو قاعدة لنفسه في كتابه (الجرح والتعديل). فقد ذكر المنع من قبول الجرح ممن اختلف حاله في العقيدة بين الجارح والمجروح ، ثم قال : (بل الصواب عندنا أنه من ثبتت إمامته وعدالته وكثر مادحوه ومزكوه وندر جارحه، فإنا لا نلتفت إلى الجرح فيه ونعمل فيه بالعدالة) .

ولعل من أبرز امثلة التعصب الذميم ما ذكره ابن عقيل قال : (رأيت الناس لايعصمهم من الظلم إلا العجز ولا اقول العوام بل العلماء ، كانت أيدي الحنابلة مبسوطة في أيام ابن يونس فكانوا يستطيلون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع حتى ما يمكنوهم من الجهر بالبسملة والقنوت - وهي مسالة اجتهادية - فلما جاءت أيام النظام ومات ابن يونس زالت شوكة الحنابلة ، واستطال عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة ، فتدبرت أمر الفريقين فاذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم) [2] .

والحقيقة أن روح الانصاف والبعد عن التعصب قد شاع في كثير من فتاوى وكتابات الأئمة من العلماء المجتهدين. ونحن نحسب أن كل من حاز هذه الدرجة العالية من العلم والفقه في الدين، فلا بد له من أن يتحرر من ربقة التعصب، الذي هو توأم التقليد كما ذكرنا. ومن هؤلاء العلماء القرافي والشاطبي الذين خالفا المالكية في العديد من المسائل، وابن تيمية الذي خالف الحنابلة، بل الأئمة الأربعة مما أداه إليه اجتهاده ، وأبو المعالي الجويني الشافعي، كان (حر الرأي والضمير) [3]، وأمثالهم كثير .

وفي مقابل هذه الصورة الوضيئة نرى مثل الكرخي الحنفي يدعي دعوة عريضة لم يسبق إليها وهي تمثل ذروة التمذهب والتعصب فقد ورد في كتاب (أصول الكرخي):

(الأصل في كل آية تخالف قول أصحابنا فإنها تحمل على النسخ أو على الترجيح والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق)! [4] .

وأما في الأحاديث التي تخالف المذهب فيقول :

---

[1] الكتاب هو (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) أحمد ابن تيمية و أحمد ابن حجر الهيثمي

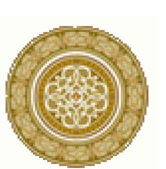
[2] القاسمي : الجرح والتعديل / 35

[3] قاعدة في الجرح والتعديل / 31

[4] مقدمة (الغبائي) تحقيق عبد العظيم الديب

(الأصل إن كل خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا فإنه يحمل على النسخ أو على أنه معارض بمثله ثم صار إلى دليل أخر أو ترجيح فيه بما يحتج به أصحابنا من وجوه الترجيح أو يحمل على التوفيق)[1] فسبحان الله العظيم ، أن يعتبر الأصل هو صحة المذهب وأن تحمل الآيات والأحاديث بعد ذلك على ما يوافق المذهب ؟! ولو قال : يقدم المذهب على ماعداه، لكانت المشكلة أخف وطأة ، ولكن أن يكون الأصل هو صحة المذهب، ويوفق على أساسه الكتاب والسنة ، فهذا خُلف باطل وعصبية شنعاء واستبدال المدلول بالدليل، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

.



[1] رسالة في أصول الكرخي (ملحق لكتاب أصول البزدوي ص 323)

المبحث الثالث

الجهل

الجهل صفة بغيضة على النفس ، مذمومة في العقل، لايقبل الاتصاف بها أحد عن رضى وقناعة. ففطرة النفس التي فطرها الله عليها أنها نازعة إلى العلم ، محبة له، لأنها نازعة للكمال دون النقص وان اختلفت درجات الناس في سلم الارتقاء لهذا الكمال.

والجهل من أسباب التفرق الذي حذرنا الله منه، عندما ذكر صفة أهل الكتاب، وأن من أسباب العداوة بينهم هو نسيان العلم { **فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**}[1] .

وقال سبحانه عن الأمم السابقة : { **فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا**}[2] .

والخوض هو بالاعتقاد الباطل أو التكلم به [3]

وقال تعالى { **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**}[4] .

ولذلك حث الشرع الحنيف على طلب العلم والسعي في تحصيله [5] .

روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(**طلب العلم فريضة على كل مسلم**) كما وردت الأحاديث والأخبار بفضل العالم على غيره فضلاً كبيراً.

روى الترمذي من حديث أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (**من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ....**).

قال الربيع : سمعت الشافعي يقول : (طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة) .

---

[1] المائدة - 14

[2] التوبة - 69

[3] ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم / 25

[4] الاسراء -36

[5] راجع : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر

والآيات والأحاديث في الحث على العلم المنافي للجهل كثيرة جداً ويكفي في ذلك ما رفع الله به درجة العلماء، حين استشهد بهم على ألوهيته ووحدانيته

{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [1].

وينعي الله سبحانه وتعالى على اليهود والنصارى جدالهم في الله بغير علم، وجدالهم في التوراة والإنجيل بغير علم ، ويتحداهم أن يأتوا بإشارة ممن علم، كشاهد على ما يقولون ، وهذا تعليم وتنبيه منه سبحانه وتعالى بطريق الأولى للمسلمين أن يقولوا ولا يجادلوا بغير علم ، كما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من تعلم علم لا ينفع ، لأن العلم الحقيقي هو الذي ينفع الانسان في الدنيا والآخرة ، ورفع الله جل شأنه به أمة أمية جاهلية إلى أمة هي في مرتبة الأستاذية للعالم ، وليس في العالم أمة وسطاً في أقوالها وأفعالها وعلمها كالأمة الإسلامية .

والجهل قد يكون لنقص العلم وقد يكون لعدم وجود العلم النافع، وكلاهما حذر الله ورسوله منهما ، بل الجهل هو أحد شِقي ضلال الناس ، والشق الثاني هو الظلم ، يقول ابن تيمية [2]: { والجهل والظلم هما أصل كل شر كما قال سبحانه { وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا }[3]

والجهل أصل الضلالين ، وأخطر الشرين ، فمن جهل ظلم وتعدى سواء ظلم نفسه أو غيره ، وتعدي على حدود الله تعالى ، والظالم بالضرورة جاهل بما افترضه عليه من العدل أو متناس.

والجهل قد يكون بمعنى الفقد الكميّ للعلم كما قال تعالى { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ}[4] أي غير العالم بحقيقة حالهم، أو المطلع على خفايا أوضاعهم ، فهو فاقد للعلم بذلك، والجهل المنشأ للضلال أعم من ذلك ، إذ قد يكون كمياً وقد يكون كيفياً، بمعنى أن العلم ليس علماً حقيقياً ينشأ عنه اليقين.

والحق أن مجرد فقد العلم ليس محلاً للذم في كل حال، إلا أن يكون علماً مطلوباً طلب عين على كل مسلم ، والناس إما عالم أو متعلم ، وغير ذلك غوغاء أتباع كل ناعق ، وكل من أهل هذين القسمين يقع فيهم الجهل المؤدي للضلال .

فالقسم الأول وهم علماء الناس ، فإننا نرى أن لهم درجات متفاوتة وأنواعاً متميزة حسب مايصل إليه علم العالم منهم وحسب مجال النظر له ، فعلماء الشريعة درجات ، منهم القادرون على التصدي للافتاء والمختصون بعلم الفقه عامة، ومنهم المستقل بدراسة علم معين كالحديث أو الأصول أو غيره ، ومنهم علماء تدارسوا الشريعة وعلومها بشكل عام ومجمل، وتعلموا مقاصدها ومآخذها، إلى جانب الإحاطة بغير ذلك من العلوم التي تنظم أحوال المعيشة وما

---

[1] آل عمران - 18
[2] ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم /17
[3] البقرة : 273
[4] البقرة - 273

يتعلق باحوال الدنيا، وغير ذلك من صنوف العلماء الذين يتخصصون في العديد من فروع العلم المتسعة .

والجهل المؤدي للضلال قد يقع من هولاء من نواح :

أولاً : ممارسة الواحد منهم لما لايصح له من العلوم دون تأهل لذلك، اغتراراً بقدرته، وذهولاً عن حقيقة علمه ومجاله، فإذا به ينشغل بالكلام فيما لم يحصل رتبته ولم يبلغ الدرجة التي تؤهله للخوض فيه، وإبداء الرأي في مسائله. وكذلك أن يحاول من هو في طبقة من طبقات العلم أن يتعداها دون تحصيل شروط الطبقة التي قبلها ، فيضع نفسه في غير موضعها، فيضِل ويُضِل، ويكون بهذه الصفة من الجاهلية. وإن من تمام فقه الفقيه وعلم العالم أن يعرف قدر نفسه فلا يتعداه، وأن يحقق مجاله العلمي فلا يخرج عنه ، ولايتصدى لما ليس له بأهل. فهو إن كان من علماء الحديث المتخصصين، فمجاله في علم الحديث واسع، ولا عليه أن لا يفتي في مسائل كثيرة تحتاج إلى أدوات أخرى من الأصول واللغة وفهم الواقع والعيش مع مشكلات الناس والغوص الدقيق في كتب الفقه. وقل مثل ذلك لمن حصّل القدرة على الفتوى، فليس له أن يفتي بدون التحقق من صحة الحديث، أو أن يتحدث في الرجال وجرحهم وتعديلهم، دون أن تكتمل له أدوات البحث في علم الحديث. والأنكى من هذا هو من يتصدى للافتاء وليس بين يديه أي أداة من أدوات الاجتهاد، وإنما شذرات من بعض العلوم المتفرقة .

وإن ما ذكرناه إنما ينشأ لما يجده الواحد من هؤلاء في نفسه من خوف من التقصير، وكراهة أن يسأل عما لا يعرف فيقول لا أدري، وحباً في أن يظهر وسط الطلاب والمريدين والأتباع بمظهر من لا تخفى عليه خافية، وفي هذا ما فيه من الخطأ والجهل .

نقل ابن القيم : (وصح عن ابن مسعود وابن عباس : من أفتى الناس في كل مايسألونه عنه فهو مجنون ، وقال ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل به ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله اعلم فإن الله قال لنبيه : { **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**}[1].

وقال ابن سيرين : لأن يموت الرجل جاهلاً خير له من أن يقول ما لا يعلم .

وقال مالك : من فقه العالم أن يقول : لاأعلم . فإنه عسى أن يتهيأ له الخير .

وقال الشعبي : لا أدري نصف العلم) [2] .

ثانياً : أن الجهل قد يكون خصيصة من خصائص بعض العقول، رغم تراكم المعلومات والمعارف فيها تراكما كمياً، فيكون صاحب هذا العقل جاهلاً رغم ما يختزنه عقله من معرفة وعلم. ومرد ذلك - فيما نحسب - إلى عدم التمكن من ربط هذه المعارف المكتسبة بعضها ببعض ربطاً منطقياً صحيحاً متسلسلاً، ليؤدي إلى علم حقيقى، هو الإحاطة بحقائق تلك

---

[1] سورة ص - 86
[2] اعلام الموقعين 185/2

المعارف ومقاصدها وغاياتها ثم الخروج بنتائجها ولوازمها في شكل واضح مترابط ، قال تعالى : { مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا } [1] .

فهؤلاء جمعوا الأسفار في عقولهم دون أن يفقهوا لها معنى أو يحيطوا بمغزاها خبراً، فكان منهم من لم يربط أوامرها ونواهيها بمقاصدها وغاياتها، فاستوى عندهم لفظها ومعناها، وغابت عنهم حكمتها، فكانوا رواة أخبار لا علماء أحبار. ومنهم من حفظ ألفاظها وعرف أشكالها ورواياتها، ثم أدعى عدم كفايتها بالمطلوب، وأن لا دلالة لألفاظها إلا على وجه من المعاني يريده هو، فهدم بذلك الشريعة، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً .

فالظاهرية أرباب النصوص جهلوا مدلولات الألفاظ، وأنها تراد لمعانيها، وأن الشريعة مقاصد ومعان تحقق المصلحة وتدرأ المفسدة على أكمل الوجوه، فعطلوا المعاني في سبيل الألفاظ .

والعقلانيون، من معتزلة ومن نحا نحوهم ممن عظموا العقل وحكموه من أهل الرأي المذموم، بخسوا الشريعة قدرها، ورفعوا العقل فوقها، بينما هو تابع لا متبوع، فعطلوا النصوص في سبيل الرأي والعقل، بل الهوى .

يقول ابن تيمية في تفسير آية { فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [2] فلما أعرضت الطائفتان (يعني طائفة العقلانيين، وطائفة الذين يأخذون النصوص بدون الدلالة التي فيها والبراهين على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم) لما أعرضوا عن الطريقة الصحيحة حصل لهم التفرق)[3] .

ومن هنا كان جهل هذه الطائفة هو منشأ التفرق ، وهم كانوا رؤوس البدع، إذ أن ابتداعهم عادة يكون في أصل كلي من أصول الشريعة وقواعدها العامة .

يقول الشاطبي في الاعتصام في بيان السبب الذي يرجع إليه التفرق :

(وهو الجهل بمقاصد الشريعة والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبيت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول، ولايكون ذلك من راسخ بالعلم. ألا ترى الخوارج كيف خرجوا من الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمي ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفهم بأنهم يقرؤون القرآن لايتجاوز تراقيهم ، يعني - والله أعلم - أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم، لأن الفهم راجع إلى القلب، فإن لم يصل الى القلب لم يحصل فيه فهم على حال ، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف فقط، وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لايفهم) [4] .

---

[1] الجمعة - 5 . يقول القرطبي في تفسيره : "ففي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه، لئلا يلحقه من الذم مالحق هؤلاء" 94/18

[2] المائدة - 14

[3] الفتاوى 19 / 161

[4] الاعتصام للشاطبي 182/2

وكل الذي ذكرناه، كان على شرط صحة النية وحسن القصد. أما ان فسدت النية وانحرف القصد، فالعالم يتخذ علمه وسيلة لتحصيل منفعة في الدنيا أو إرضاء للسلطان ، فينحرف بعلمه وينحرف به علمه إلى مهاوي النفاق والمداراة والرضى بالدون وبيع الدين بالدنيا ... وهو جهل مضاعف.

وثالثا : قد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على بعض أنواع الجهل المنشئ للاختلاف والضلال .

قال في بيان أسباب الاختلاف :

أويكون سبب جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر . أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم أو الدليل) [1] .

فمنها جهل المتنازعين بالأمر المتنازع فيه أصلاً، وعدم الإحاطة بعلمه في كل نواحيه ، بل كل من الفريقين لم يفهم عن الشريعة في مقاصدها على الحقيقة ، إذ لو فهموا هذا القصد لما حدث التنازع، فالشريعة - حين تفهم على حقيقها - ترفع التنازع بين المختلفين ، قال تعالى { **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** } [2] .

فحيثما وجد الاختلاف - المؤدي للتفرق والبدعة - فثم الجهل وعدم الفهم الصحيح للشريعة.

جاء في الطحاوية : (بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول ولاسيما إن أضيف إليه سوء القصد) [3] وهذا المعنى قريب مما قررناه سابقاً .

وهذا إنما يتفرع من تصور آخر للجهل بين المتنازعين، وهو عدم تحقيق النقطة المحددة التي يدور حولها النزاع، أي موضع الخلاف. فنجد أن كلاً من الفريقين يتحدث عن نقطة ليست هي التي يتحدث عنها الفريق الآخر ، فيستعر الخلاف بينهما، ولو قام كل فريق بتحديد النقطة التي يتحدث فيها بدقة لحسم الخلاف في كثير من الأحيان وهذا التحديد هو مايطلق عليه الأصوليون تحرير موضع النزاع .

كما يتفرع عنه أمر آخر لايقل عنه أهمية ، وهو أن كثيرا من الخلاف يكون بسبب عدم تحديد معاني المصطلحات المستخدمة في الحوار بدقة ، فإن الكثير من الخلط يكون ناشئاً عن أن المصطلح المستخدم أو اللفظة المتداولة يكون فيها اشتراك أو إجمال.

---

[1] اقتضاء الصراط المستقيم / 37
[2] النساء - 82
[3] شرح الطحاوية / 452

والاشتراك : هو أن يدل اللفظ على عدة معان بالتساوي ومثاله العين : فهي تطلق على العين المبصرة وعلى الجاسوس وعلى الذات .. وكذلك القرء في الشرع قد يطلق على الحيض أو الطهر .

والأجمال : هو أن ينطوي تحت اللفظ عدة معان محتملة ويراد باللفظ معنى محدد منها دون سواه من المعاني . وفهمه يحتاج الى أن ينضم إلى ذلك اللفظ دليل آخر ليوضح المعنى الصحيح لهذا اللفظ المجمل .

ومثاله قوله صلى الله عليه وسلم : (**صلوا كما رأيتموني أصلي**)[1] . فهذا كلام مجمل يجب أن ينضم إليه معرفة حاله صلى الله عليه وسلم في الصلاة لمعرفة معنى هذا الكلام والقصد به على الحقيقة .

يقول ابن تيمية : (وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ، وفي ذلك من فساد الدين والعقل مالايعلمه إلا الله)[2] .

ويعبر الدكتور جبسون عن نفس المعنى بقوله : (والواقع أن عجز الناس عن الوصول إلى تفاهم متبادل كثيرا مايكون ناشئاً عن أنهم يؤولون الكلمة الواحدة تأويلات مختلفة . ولذلك يتعين على الفرقاء المعنين بالأمر أن يتكلموا اللغة نفسها } أي أن عليهم أن يسموا الشيء الواحد باسم واحد)[3] .

وأما عوام الناس، والذين فيهم المتعلمون الطالبون للحق، وفيهم الدهماء الذين لا يميزون بين حق وباطل ، فهؤلاء ينشأ ضلالهم من نواحي منها:

أولاً : أن يجمع بين العجز عن البحث والنظر للوصول إلى الحق وبين اعتقاد وخلاف ذلك الحق إما تقليداً، أو اتباعاً لهوى لأن العلم المطلوب هنا هو ما يمكّن الفرد من عدم الوقوع في مزالق الهوى، وأن يجعله مدركاً لما يحاك حوله من دسائس ، وما تتخذه الجاهلية من صور وأشكال يمكن التمويه عليه بها، فإنما (ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية) كما قال عمر رضي الله عنه .

وإنما يحصل الضلال لمن يظن انه يسهل عليه الوصول إلى العلم الحقيقي بمجرد نظرات في وريقات، أو الاستماع لبعض الكلمات من العلماء، فيتصدرون للكلام في الدين ومسائله .

ثانياً: اتباع كل ناعق والسير وراء أي شعار مرفوع وهو جهل أتباع المبتدعة في كل زمان ، وإنما يكون ذلك لأن هناك صفة أخرى في المرء تضاف إلى فقده للعلم، وهي فقده للفطرة السليمة والعقل البديهي الواضح .

---

[1] شرح السنة للبغوي : 2 /296

[2] درء تعارض العقل والنقل 1/ 233

[3] كيف تفكر / 43

ذلك أن الجهل ليس قسيماً للعقل وإنما هو قسيم للعلم . فقد يكون المرء قليل العلم، ولكن يكون كذلك من العقلاء الذين لا يسهل التمويه عليهم أو جر أقدامهم بالشبهات أو مجرد الشعارات والعبارات ، وهذا القدر من العقل البديهي المستمد من الفطرة السليمة من الفساد هو الذي يقوم عليه أتباع الهدي المحمدي من عوام الخلق ، وهو الذي اعتمد عليه القرآن الكريم في عرض أدلة دعوته، فهو لايعرض المعوصات الأمور أو متعمقات الأدلة والبراهين بل يكتفي بالسهل القريب التناول على من صلحت فطرته وانشرح صدره ، فإن ذلك كاف للهداية في الإسلام .

فجهل الأتباع إذن فساد في الفطرة وفقدان للتميز وعمى في القلب يجعل المرء غير قادر على رؤية الحق مع وضوحه وجلائه فالحذر الحذر من كلا الصنفين جهل الرؤوس وجهل الاتباع.

وليعض أحدنا بنواجذه على ما اتفق عليه السلف الصالح من أصول وقواعد، ولا نخرج عنها بحال ، ثم لا نأخذها إلا من مظانها، وممن هم أهل للإدلاء بها إلينا، ولا نكتفي بالنظر الأول دون البحث والتمحيص، أو فلنتق الله ولنحاول رؤية الحق من أي جهة سطع بمنظار الفطرة ومعيار البديهة، ولا يمنعنا مانع منه، سواء مانع التعصب او الهوى أو الجهل، أو أي شعار من الشعارات التي تُرفع لتمنعنا عن رؤية الحق الساطع .

الفصل الثاني

العوامل الخارجية

مقدمة:

شَكّل الإسلام قوة دافعة هائلة، اندفع بها الجيل الأول من الصحابة في أنحاء البلاد المحيطة بجزيرة العرب، مهد الإسلام ، مزودين بتراث عظيم من الذكرى الحية لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه الشريفة، التي هي مكمل ومبين لآيات الكتاب الحكيم. واتخذ الجهاد خطاً بارزاً وثابتاً في حياة هذا الجيل الفريد مجسدين قول الله تعالى { **وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً** }[1] وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**جاهدوا المشركين كافة**) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**)[2]

بهذا الاندفاع إلى خارج الجزيرة العربية، بدأ عهد جديد عرف بعهد الفتوحات. وكانت البداية الأولى له في عهد الصديق أبو بكر حيث استمرت الفتوحات الكبرى - والتي شكلت فتح أكبر الأمصار التي كانت لها الأثر العظيم في التفاعل والتاثير - إلى عهد عثمان رضى الله تعالى عنه .

فقد تم فتح الجزء الغربي من العراق في عهد أبي بكر من بين عامي 11 - 13 هجري على يد خالد والمثنى رضي الله عنهما، ثم استكمل فتح بقية العراق (الجزء الشرقي) في عهد عمر الفاروق 13- 19 هجري حيث كانت موقعة القادسية وبطلها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

وكذلك فقد فتحت الشام في عهد أبي بكر الصديق على يد خالد رضي الله عنهفي موقعة اليرموك ثم استكمل فتحها في عهد عمر تحت لواء أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله تعالى عنه .

وقد كانت موقعة نهاوند - أو فتح الفتوح - هي المدخل لبلاد فارس في عهد عمر بن الخطاب حيث كان بطل هذه الموقعة النعمان ابن المقرن. ثم تداعت بعدها بلاد فارس وسقط عرش كسرى للأبد ، واستكملت الفتوحات بها في عهد عثمان تحت قيادة العديد من زعماء العرب كالأحنف من قيس وعبد الله بن عامر. كذلك فتحت السند - في عهد متاخر نسبياً - في عهد الوليد ابن عبد الملك عام 91 هجرية حيث وجه الحجاج بن يوسف الثقفي محمد ابن القاسم الثقفي فتحها ، ثم فتحت بقية أجزاء الهند، ككابل وكشمير في عهد المنصور. ومما يجدر ملاحظته مما سبق من استعراض سريع لحركة الفتوحات، أن أكثر الأمصار الكبرى الهامة ذات الحضارة العريقة والديانات القديمة، قد تم فتحها في السنوات العشرين الأولى للهجرة

---

[1] التوبة - 36

[2] جامع الأصول 2 / 564 - أخرجه أبو داود والنسائي وهو صحيح

تقريباً، وقد أدى ذلك - فيما نرى - إلى سرعة سريان عوامل التأثر والتأثير فيما بين المسلمين وبين غيرهم من أبناء الأمم المفتوحة ، وبين الفكر الإسلامي والحضارة المبنية على أساسه - وبين الحضارات الأخرى التي بنيت على أساس فكر وثني ملحد [1] أو عقلي بشري [2] او كتابي محرّف [3] .

كان من نتيجة انتشار الفتوحات على كل تلك الرقعة من الأرض أن اختلط العرب المسلمون الفاتحون بغيرهم من الشعوب التي تعيش في تلك الأنحاء. وبطبيعة الأمر - كما أسلفنا - كان لكل منها تراث فكري عقائدي خاص ، كما أن لها عاداتها وتقاليدها وطبائعها ومزاجها وعقليتها الخاصة بها ، والتي هي تراث أجيال عديدة، انحدرت للأبناء من الأجداد، ترسبت في نفوسها وفي هيئتها الاجتماعية والعقلية على السواء .

وكان من نتيجة هذا الإختلاط أن تأثر الفاتحون - بعض التأثر - بما عليه أهل الأمم المفتوحة، كما تأثرت تلك الشعوب بما حمل لها الفاتحون من دين ولغة وأخلاق و عادات ومناحي عقلية، كلها مندرجة في ثنايا هذا الدين الجديد ، وإن كان تأثر الأمم المفتوحة بما حمل لها الفاتحون أقوى كثيراً من تأثير تلك الأمم في العرب الفاتحين. وذلك لأن من عادة المغلوب أن يتأثر بالغالب، ويترسم خطاه في كل مناحي الحياة، فما بالك والغالب قد جاء بدين جديد يدعو إلى الإتباع أول ما يدعو، والالتزام بما عليه المسلمون من خلق و عادات وهيئات اجتماعية ومناهج عقلية يتمثل في عبادات و معاملات تشمل كل دقائق الحياة اليومية للمسلم.

ومما لاشك فيه أن كل أمة من الأمم أثرت بنوع من التأثير يناسب ما كانت عليه قبل الإسلام - كما سنرى في بحثنا التفصيلي فيما بعد - فكان تأثير الفرس مخالفاً للروم وكلاهما مختلف عن أثر الهنود أو الأثر اليهودي [4] .

عامل آخر من العوامل التي أثرت في الخط الإسلامي الواضح ، فأدت إلى ظهور تلك الفرق المنحرفة عن نهج العقيدة السلس المشرق ، هو ترجمة الكتب التي تحمل ثقافة تلك الحضارات والثقافات التي غزاها المسلمون في مهدها .

وكان هذا العامل - فيما نرى - قليل الأثر في نشأة هذه الفرق، لأن حركة الترجمة لم تقو وتشتد إلا في العصر العباسي - خاصة في عهد المأمون ثم من بعده - وإن كانت هناك بعض الترجمات في العصر الأموي، إلا أنها كانت كتباً طبية في غالبها مثلما حكي القفطي في أخبار الحكماء :

---

[1] كاليونانية

[2] / كالرومانية النصرانية او اليهودية

[3] كالفارسية والهندية

[4] راجع ضحى الإسلام : أحمد أمين 5/1 للمزيد من التفاصيل

(ماسرجويه الطبيب البصري كان إسرائيلياً في زمن عمر بن عبد العزيز ، وربما قيل في اسمه ماسرجيس، وكان عالماً بالطب ، تولى لعمر بن العزيز ترجمة أهرن القس في الطب وهو كناش فاضل من أفضل الكنانيش القديمة) [1] .

إلا أن مما لا شك فيه أن هذه الترجمات لكتب العقائد والاليات اليونانية وغيرها من كتب الفلسفة قد كان لها أكبر الأثر في فكر الفرق بعد أن تطور من مرحلته الأولى، والتي كانت غالباً ما تناقش أفكاراً أبسط بكثير من تلك المسائل التي تناولتها مؤخرا بعد انتشار تلك الكتب وبعد ازدياد حركة الاختلاط التي تحدثنا عنها قبل قليل - والتي سنتناولها بقليل من التفصيل عند دراستنا لتلك الفرق. وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد كانت المسالة التي دار حولها وجود فرق المعتزلة في أول أمرها في موقف مرتكب الكبيرة وهل هو مسلم أم كافر أم في منزلة بين المنزلتين ؟

وهو ما أدى بواصل ابن عطاء رأس المعتزلة إلى اعتزال حلقة الحسن البصري بعد خلافهما حول هذه النقطة وقد كان ذلك في بداية القرن الثاني الهجري وفي أواخر العهد الأموي (توفي ابن عطاء 131 هجرية) ، ولكن المذهب تطور واتسع وشمل الكثير من المسائل الفلسفية والطرق الفلسفية كما يتضح من دراسة أقوال لأبي هذيل العلاف المتوفي 235 هجرية حيث بحث في طبيعة الجوهر الفرد والكمون وعلة الخلق وما إلى ذلك .

يقول الشهرستاني في الملل والنحل مثبتاً تطور أساليب الفرق وأفكارها : (ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام) [2].

ويقول أحمد أمين في صدد حديثه عن الأدوار التي مرت بها الترجمة في العصر العباسي :

(ومن أشهر المترجمين في هذا الدور - الأول - ابن المقفع وقد تقدمت ترجمته وجورجيس بن جبرائيل ويوحنا بن ماسويه وكلاهما كان طبيباً نصرانياً - وفي هذا الدور اتصلت المعتزلة بالكتب التي ترجمت فتجد الأولين منهم كالنظام عرف أرسطو وعرف بعض كتبه في الفلسفة وتأثرت أبحاثهم بالمنطق وتكلموا في الطفرة والجوهر والعرض ...) [3] .

وقد نقلت كتب ارسطو وشروحها وكتب أفلاطون وبعض كتب جالينوس في الطب وغير ذلك.

وقد كان كان الخطأ في الترجمة شائعاً وذلك من المترجمين الأصليين الذين نقلوا الكتب من اليونانية إلى السريانية ثم الى العربية وهم غالباً من النصارى النساطرة كما أن النقل في مثل هذه الأمور - كالالهيات - يؤدي الى أختلاف في الفهم عن مراد المؤلف الأصلي ، إلى جانب الاختلاف بين اللغات وبعضها في معاني المفردات والتراكيب .

---

[1] عن فجر الإسلام / ص 163

[2] الملل والنحل للشهرستاني : هامش ابن حزم 32/1

[3] الضحى 1/ 264

يقول البيروني : (ولكن من الالفاظ مايسمح في دين دون دين، ويسمح به في لغة وتأباه أخرى ومنها لفظة (التأله) في دين الإسلام فإنا إذا اعتبرناها في لغة العرب وجدنا جميع الأسامي التي سمى بها الحق المحض متجهة على غيره بوجه ما سوى إسم (الله) فهو يختص به اختصاصاً) [1] .

بينما قد وصفت الذات الإلهية في الترجمات العربية عن اليونانية والسريانية بأوصاف لا تليق به سبحانه ، فترجمة الإلهيات عنهم أدى إلى زيادة التعقيد والتكلف .

وعامل آخر كان له بعض التأثير في امتداد الفرق وتغذية أفكارها وتنمية أنصارها ، ذلك هو ما نشأ من رق وموالى نتيجة تلك الفتوحات الظافرة. فقد انتشر الرقيق المجلوب من كافة أرجاء البلدان المفتوحة وأصبح في كل البيوت رقيق يعمل لأصحابه، فكان هناك عبيد وإماء : سودانيون وأتراك وأحباش وروم وأرمن وسنديون ، وكان لكل من من هولاء طبائع مختلفة ونواحي يبرز فيها عمن سواه، تختلف باختلاف موطنه وطباعه. كذلك فإن كثير من الموالي الذين دخلوا الإسلام من جديد، وليسوا بالضرورة من الرقيق لم يكونوا على تلك الدرجة العالية من الفهم الإسلامي ، بل إن كثيرا منهم دخل الإسلام خوفاً وطمعاً وهو يحمل في نفسه بقايا دينه وتقاليده ، وعاش بها بين المسلمين ، فأخذوا عنه كما أخذ عنهم .

ونسرع إلى القول بأن هذا العامل كان ضعيف التأثير في نشأة الفرق ، ولكنه كان قوي التأثير في استمرارها وتطورها إبان العهد العباسي. ولا يمنع هذا من أن كثيرا من الموالي قد شرفهم الله بالإسلام، فكانوا سادة من سادات العلم والفضل، بل قد تفوق الكثير منهم على الكثير من العرب ، وشكلوا حركة إسلامية علمية عظمى ، وكانوا حفظة للدين وقادة للأمة، ومن أعلامهم الحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير، وغيرهم كثير ممن ارتفعت أقدارهم بين الناس بعلمهم وورعهم، سواء كانوا من الموالي أو من العرب .

وأخيراً لابد من القول بأن التشبه بالكفار هو أصل البلاء كما يقول ابن تيمية : (إن من أصل دروس الدين وظهور الكفر والمعاصي هو التشبه بالكافرين ، كما أن أصل كل خير المحافظة على سنن الأنبياء وشرائعهم) [2]

فنحن، وإن كنا لانضخم من اثر العوامل الخارجية ، ولكن لا نشك في أن لها أثرا في ضعف المسلمين وتفرقهم ، وتحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من التشبه بالأعاجم أو باليهود والنصارى أكبر دليل على ذلك. وهذه هي العوامل الخارجية توضح أثرها بشكل إجمالي لنبين موضع الداء ، وأما دراستها بالتفصيل فله موضع آخر .

[1] تحقيق ما للهند من مقولة /27

[2] اقتضاء الصراط المستقيم / 116

أولا - أثر الفرس :

كان للفرس أثر جد خطير في الجو الديني الإسلامي سواء في فارس أو البلاد الإسلامية الأخرى التي انتقل إليها الفرس بعد الفتح. وذلك أن الفرس كانوا قبل الإسلام أهل حضارة عريقة وأصحاب دين قديم [1] ، فقد ظهرت الديانة الزرادشتية التي تقول بإلهية اثنين ، إله النور والخير، وإله الظلمة والشر، كما ظهرت الديانة المانوية. وقد تأثرت بمذهب النصارى في الرهبنة والانقطاع عن الدنيا. ثم عرفوا المزدكية وهي ديانة فاسدة تدعو الى الاباحية في النساء والشيوعية في الأموال. وكذلك عرف عن الفرس من قبل ومن بعد عبادة النار، واتخاذها رمزاً للخير، فجعلوا لها المعابد وخصوها بالعبادة والإجلال .

كما كان للفرس نظرة خاصة إلى ملوكهم - وأسرهم المالكة - فهم يجعلونهم في مصاف الآلهة المعبودة، فلهم حق التأله على الناس. وهو حق يتنقل في هذه الأسر بالوراثة وقد ظهرت هذه النزعة من الفرس تجاه ملوكهم الأكاسرة والساسانين .

وبعد أن تم الفتح الإسلامي لبلاد فارس ، ودخل الفرس في دين الله أفواجا، لم يكن من السهل أن يعرف كل هولاء الداخلين الإسلام كما أراده الله عز وجل. فالاعداد المسلمة غفيرة، والعادات والأفكار والأديان القديمة متأصلة في النفوس، فكان أن ترعرعت نبتة (الرفض) البغيضة في تلك البلاد ، واستمدت أفكارها الرئيسية بشأن الإمام المعصوم وآل بيته المقدسين مما رسخ في الأذهان من قديم .

يقول ضياء الدين الريس : { وبعد انتهاء عهد الخلفاء الأول، وبعد معاوية ظهر جيل جديد من أمة الفرس ، جيل لم يعرف دولة الفرس القديمة ولم يشهد الفتح. وقد نشطت حركة تحريره ، فأقبلوا جماعات على اعتناق الإسلام وأخذوا يفدون إلى المدن الكبرى ، فكانت الفكرة الشيعية أكثر الأفكار ملاءمة لعقولهم. فالفرسي يفهم جيدا الحق الالهي للملوك ، والفارسي لم يكن يستطيع أن يتصور أن يوجد خليفة بالانتخاب ، وإنما المبدأ الوحيد الذي يمكن أن يفهمه هو مبدأ الوراثة وليس من المبالغة إذن في شيء أن يقال إن البيت النبوي وقد مثله (آل علي) قد حل في قلوب هؤلاء الفرس واعتبارهم محل البيت (آل ساسان)}(1) .

وقد كانت تظهر على عدة شخصيات من الشخصيات الفارسية التي اعتنقت الإسلام، وكان لها شهرة فيه، كانت تظهر فيها نزعة الحنين إلى الفارسية ودينها ، فتظهرها حيناً وتبطنها حيناً آخر كالبرامكة وآل سهل. فهذا الفضل بن سهل - المسمى بذي الرياستين - يبعث بعض الأحداث من أهله للتعلم في خراسان حيث يتشربون الأثر الفارسي (وقد عرف عن البرامكة إيواءهم

---

[1] انظر الملل والنحل للشهرستاني

لمن يرمى بالزندقة وكان هشام بن الحكم الرافضي منقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي، وكان القيم بمجالس كلامه ونظره ، وقد ألف كتباً كثيرة)[1]

يقول أحمد أمين : (وسبب ثان، هو أن بعض الفرس رأوا أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق مطالبهم، فقد انتقلوا من يد عربية وهي اليد الأموية الى يد أخرى في يد العباسيين ، ومطمح نفوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها ، في سلطتها ولغتها ودينها ، ورأوا أن ذلك لا يتحقق والإسلام في سلطانه فأخذوا يعملون لنشر المانوية والزرادشتية والمزدكية ظاهراً إن أمكن وخفية إذا لم يمكن) [2] .

والحق أن الأثر الفارسي قد ظهر كأشد مايكون في بدعة (الرفض) او التشيع كما يود الرافضة أن يطلقوا على أنفسهم ترغيباً في بدعتهم وإخفاء لعوارهم ، وكما يطلق عليها بعض من انخدع بأقوال الرافضة من أهل السنة (الطيبين) ، فكانت بلاد فارس هي المحضن الطبيعي لتلك المبدعة الشنعاء وفيها أثمرت ومنها انطلقت الطموحات الرافضة بايران في عصرنا الحالي. وسيكون المجال أرحب للتفصيل عن ذلك في البحث المخصص للروافض بإذن الله تعالى عند دراسة الفرق الكبرى .

ثانياً - أثر اليونان :

كان لاتصال المسلمين بالفكر اليوناني أثر عميق في عدة نواح من جوانب الفكر الإسلامي، الذي خرج عن أصالته وبساطته في تلك النواحي التي اتصل فيها بفكر اليونان . وقد كان أهم جانب استأثر بالأثر اليوناني هو جانب العقيدة وما يتعلق بها من مباحث .

فاليونان قد عُرفوا من قديم الزمان بالبحث الفلسفي ، وقد كانت لديهم عدة مدارس فلسفية، تقيم كل مدرسة منها بناءاً عاماً يدرس من خلاله أصل الوجود والانسان والعلاقة بين الخالق في حالة أن تكون المدرسة تعترف بوجود خالق كالمدرسة الأرسطية - والمخلوق وماهية الخالق وطريقة الخلق وطبيعة الانسان ... إلى غير ذلك عن طريق العقل ... والعقل وحده وقد وضعت كل مدرسة من تلك المدارس نظرية تعالج فيها كل تلك الأمور من وجهة نظر مؤسسها ومن عمل تمم البناء من بعده ، وكانت هذه المدارس بطبيعة الحال تتقارب فيما بينها، بشأن ما تبحثه من قضايا. وذلك شأن الباحث المعتمد على العقل وحده في خضم تلك المباحث التي لا سلامة في النظر فيها إلا بمنار الوحي واستلهام الشرع .

وليس مجالنا في هذه العجالة أن نستعرض تلك المدارس الفلسفية التي أنتجها العقل اليوناني في محاولته للوصول إلى الحق بمعرض عن الوحي الإلهي، ولكن قد يكون لمدرسة أرسطو بالذات متسع بالشرح والتفصيل، عند التعرض لدراسة الاعتزال في موضعه الخاص من هذه المباحث عند استعراض الفكر الاعتزالي ودور المعتزلة كفرقة مبتدعة. ذلك أن تلك المدرسة

---

[1] ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية 71
[2] ضحى الإسلام / 194 بتصرف

كان لها أكبر الأثر في ذلك الفكر الإبتدائي سواء في جانبها الفلسفي أو المنطقي ودورها في إنشاء ما سمي بعلم (الكلام) أو (التوحيد) كما أطلق عليه مؤيدوه، باعتبار أنه الدفاع عن التوحيد الإسلامي في مواجهة الفكر اليوناني الملحد وبطريقة ذلك الفكر نفسه !

وقد كان من أول ما نقل إلى العربية من نتاج تلك العقلية هو ما ترجمه ابن المقفع من كتب المنطق الأرسطي ، وإن كان الاتصال في أول الأمر قاصداً على العلوم الطبية، كما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز، حين ترجم له ماسرجويه الطبيب - وكان اسرائيلياً - كتاب اهرن القدس في الطب، كما أشرنا من قبل.

ثم أصبح شائعاً في العهد العباسي نقل العلوم العقلية اليونانية من فلسفة ومنطق بشكل منظم ومكثف في عصر المأمون العباسي وبعده .

ورغم أن الأثر اليوناني قد ظهر كأشد ما يكون في فكر من يسمون بفلاسفة الإسلام، كالفارابي وابن سينا وفي فكر المعتزلة، إلا أنه قد أثر في مناهج الفكر بشكل عام عند بقية الفرق ، بل وعند بعض علماء أهل السنة الذين دافعوا عن علم (الكلام) الذي استقوه من المنهج المنطقي اليوناني. وقد تجلى ذلك في كتابات أئمة (الأشاعرة) كما سيتضح بعد .

ثالثاً. أثر الهند :

كان فتح السند على يد محمد بن القاسم الثقفي، أيام الوليد بن عبد الملك عام 91 هجرية. ثم توسع الفتح في أيام المنصور العباسي عام 142 هجرية. ففتحت كابل وكشمير ، وكان الاتصال بين العقلية الهندية بثقافتها وديانتها، وبين المسلمين الفاتحين عن طريق التجارة أو الاقامة للفاتحين في البلاد الجديدة أو بنقل الثقافة وترجمتها كما حدث بالنسبة للفارسية أو اليونانية .

وقد كان من أهم ما أثر به فكر الهنود في الفرق المبتدعة في الإسلام هي فكرة (التناسخ) [1]، فقد نشات عدة فرق تقول بهذه الفكرة منها السبأية من الروافض .

كذلك تأثرت الصوفية بالهندوكية ، يقول البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة" : {وإلى طريق (باتنجل) ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق فقالوا : مادمت تشير فلست بموحد، حتى يستولي الحق على إشارتك بإفنائها عنك، فلا يبقى مشير ولا إشارة) (2) ويقول نقلاً عن كتاب باتنجل : (ومن اشتغل بنفسه عما سواها لم يضيع لها نفساً مجذوباً ولا مرسلاً، ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية فمنح الاقتدار على :

---

[1] وفكرة التناسخ التي ذكرناها هي أن الله سبحانه يبعث المسيء العاصي في جسد كائن أحط منه مستوى كالكلب أو الحمار أو الخنزير حسب معاصيه ليتعذب في تلك الجسد ، أما المطيع فإنه يبعث في جسد كائن أرقى أو يظل روحاً هائماً أو يفنى فناءاً تاماً ! راجع الفصل لابن حزم ج1 / ص90.

- تلطيف البدن حتى يخفى على الأعين.

- التمكن من الإرادات.

- التمكن من انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة .

ويعقب البيروني وإلى مثل هذا أشارت الصوفية }[1] .

ومن الفرق التي تأثرت بالتناسخ (النصيرية) و (الدروز) الذين يعتقدون أن مرتكبي الآثام يعودون إلى الدنيا يهوداً أو نصارى أو مسلمين سنيين !! [2] .

رابعاً - أثر اليهودية :

ساعد الأثر اليهودي في إخراج القالب الحالي للديانة اليهودية، إلى جانب ما كان من تحريف وتبديل منذ عصر السبي في عهد نبوخنصر، إذ ظلت اليهودية تعيش قروناً تحت ظل الحكم اليوناني الروماني ، كما كانت منتشرة في الأسكندرية وعلى شواطئ البحر المتوسط، حيث الثقافة اليونانية. كما كان من أحبار اليهود من تعلم الفلسفة اليونانية وتأدب بآدابها ، فتسربت تلك الثقافة الى اليهودية. وحين خالط اليهود المسلمين كانوا يحملون كل هذا التراث الخليط من الديانة المحرفة والفلسفة اليونانية المشوّهة .

والحق، أن الأفكار اليهودية بذاتها لم تكن ذات أثر كبير في نشأة فرق مبتدعة في الإسلام بقدر ما كان لشخصيات يهودية الأصل، دخلت الإسلام لمحاولة تبديل عقائده وتخريبه من الداخل ، ونضرب مثالين لهذا الأثر الشخصي اليهودي :

1- عبد الله بن سبأ : ذلك اليهودي الذي ادعى الإسلام في عهد عثمان رضي الله عنه. وقد ولد بصنعاء من أمة سوداء. وقد تسبب ابم سبأ هذا في إثارة الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه، عندما توجه الى مصر، وتكلم (بالرجعة) فيها - أي رجعة محمد صلى الله عليه وسلم كما في رجعة المسيح عليه السلام أخر الزمان، ثم بوصاية علي رضي الله عنه، وألب الطوائف على عثمان رضي الله عنه. وقد أخذت عنه غلاة الشيعة القائلين بألوهية علي رضي الله عنه، وهم المسمون بالسبأية نسبة إلى هذا اللعين. [3]

2- وكان أصل القول بخلق القرآن وبالجبرية (**لبيد بن الأعصم**)، الذي سحر للنبي صلى الله عليه وسلم. ذلك انه كان يقول بخلق التوراة - وكان يهودياً- فأخذ عنه ذلك ختنه طالوت، فأخذه عنه أبان بن سمعان، ثم عنه الجعد بن درهم، فالجهم بن صفوان، ثم بشر المريسي، الذي كان

---

[1] تاريخ التصوف / عبد الرحمن البدوي / 36، 37

[2] الضحى / أحمد أمين 1 / 241

[3] الطبري وابن الأثير

من أصل يهودي. كذلك ما كان من انتقال الإسرائيليات إلى كتب التفسير، فذلك أمر ملحوظ في العديد من التفاسير بالفعل. مثلما رووه في تفسير سورة يوسف عليه السلام. ولكن ما كان لهذه التغيرات من أثر فعلي في نشأة الفرق، إلا من حيث نقلها لما سبق من آراء استغلها المغرضون في رسم مذاهبهم وعقائدهم، كالرافضة الذين كانوا أكثر من أخذ عن اليهود في وضع أسس دينهم و عقائدهم، كما نقلوا عقيدة البداء المنقولة عن اليهود - أي جواز أن يبدأ الله عز وجل أمراً مستأنفاً، فيرجع عن رأيه الأول إلى الثاني، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً، وكذلك قولهم بالرجعة [1] .

خامسا - أثر النصرانية :

كان التحريف والتبديل قد لعب دوره في النصرانية - كاليهودية - بفعل بولس اليهودي، الذي أدخل عقيدة التثليث على دين المسيح عليه السلام، ليوفق بينه وبين عقائد الوثنية المنتشرة في بلاد الروم آنذاك، ويكون للدين المزيج الغلبة في نهاية الأمر .

وقد عاشت النصرانية - في ثوبها الجديد الزائف - على حدود العالم الإسلامي في عدة أنحاء منه ، فكان في نجران باليمن نصارى يعاقبة على مذهب الرومان ، وكذلك في غسّان كما كان بالحيرة نصارى نساطرة ، إلى جانب الصوامع المنتشرة في أرجاء الجزيرة العربية، حيث كان العرب يقابلون الرهبان في صوامعهم، في رحلاتهم التجارية. وقد كان بعض العرب في الجاهلية من النصارى، كورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة، وأمية بن أبي الصلت الشاعر .

وقد أثرت النصرانية في نشاة الفرق في الإسلام بطريقتين ، العامل الفردي أو الشخصي ثم المفاهيم العامة والعقائد .

فمن المفاهيم النصرانية التي تسربت إلى عقول طوائف من المسلمين، وأدت بهم إلى (الصوفية) هي نظرة النصرانية إلى الدنيا واحتقارهم الكامل لها - في ظاهر الأمر - واعتبار أن النجاة في الرهبانية، وهي الأعراض عن العمل والزواج والسعي في الأرض، للتوفر على عبادة الله وحده - بزعمهم - مما أدى إلى التأثير على الزهاد والعباد المسلمين - الذين كانوا كنواة للصوفية - فانحرف بهم إلى الرهبانية، التي منع منها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله (**سياحة أمتي الجهاد**) (2) وقوله صلى الله عليه وسلم : **(إن ترهب أمتي الجلوس في**

---

[1] أما ماذكره صاحب ضحى الإسلام في 1/ 335 من أن تعرض المسلمين في مباحثهم للنسخ في القرآن كان من تأثير اليهود فهو قول مردود، لأن ذلك مبحث خاص بأصول الفقه. قال به الشافعي الذي لم يتأثر بيهود أو غيرهم ، كما أن له مبررات تكفي للبحث فيه كالآيات الدالة على ذلك عند دراستها. كذلك الأحاديث التي ثبت نسخها ، فلا حاجة لادعاء الأثر اليهودي فيها. يراجع كذلك الحضارة الإسلامية آدم قنبر 2/20 ، 2/29 ، 2/46 .

المساجد لانتظار الصلاة) [1] وقد قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ } [2] .

وقد كان للمفاهيم النصرانية عن (اللاهوت) و (الناسوت) والاتحاد بينهما أثر في تنمية وتشكيل مبدأ الحلول والاتحاد الذي قال به متاخروا الصوفية، كالحلاج، وابن سبعين، و ابن عربي. كذلك مفهوم (الولاية) بالمعنى الصوفي فهي مذهب نصراني غنوسطي [3] .

وقد أدت المناقشات التي دارت بين المسلمين والنصارى إلى التأثير في مناهج التفكير لدى الفرق المبتدعة وخاصة روؤسهم .

جاء في كتاب "الغرب والروم" لغازيليق : (وكانت عاصمة الأمويين دمشق مسرحاً قامت عليه كثير من المناقشات الدينية، تلك التي سجلها يوحنا الدمشقي وتيودور أبوقرة وهي معروفة، وقد رأى البعض أن المذاهب الأولى الخارجة على السنة في الإسلام نشأت من هذه المناقشات الدينية مثل الإرجاء والقدرية) [4] .

ويقول الذهبي في ترجمة الفارابي : (ولقي يونس بن متى صاحب المنطق، فأخذ عنه وسار إلى حران، فلزم فيها يوحنا بن جيلان النصراني، وسار إلى مصر وسكن دمشق) [5]

كما روى أبو نعيم في (الحلية): (أن رجلاً قال لعبد الله بن الفرج العابد : يا أبا محمد هؤلاء الرهبان يتكلمون بالحكمة وهم أهل كفر وضلال فمم ذلك ؟ قال : ميراث الجوع ! - متعت بك - ميراث الجوع - متعت بك !) [6].

كما نقل الذهبي : (قال أحمد بن أبي الحواري : وقلت لراهب في دير حرملة: ما يحبسك؟ قال: حبست نفسي عن الشهوات. قلت : نجد في كتبنا أن بدن ابن آدم خلق من الأرض، وروحه خلق من ملكوت السماء، فإذا جاع البدن فأطعمه وأراحه، أخلد إلى الموضع الذي منه خلق، فاحب الدنيا . فحدثت بهذا أبا سليمان الداراني فقال : قاتلهم الله إنهم يصفون)[7] .

وكان مالك بن دينار من أوائل الصوفية الذين اطلعوا على كتب النصارى، أو حاوروا كثيراً من الرهبان. وينقل عنهم في كلامه، وخاصة موضوع تعذيب الجسد ، والسياحة في البراري. وكان يغشى أديرة النصارى، ويديم الاطلاع على كتابهم المقدس[8] .

---

[1] خرجه ابن المبارك عن عثمان بن مظعون : الاعتصام 325/1 .
[2] المائدة -87
[3] الحضارة الإسلامية / متز /2/ 46 .
[4] ص - 83
[5] أعلام النبلاء 15 /417
[6] تاريخ التصوف - بدوي 35
[7] سير أعلام النبلاء 12/ 89
[8] تاريخ التصوف - بدوي 207

كما أن المطالع لكتب التاريخ، تأخذه الدهشة من نفوذ النصارى في قصور بعض الخلفاء، حيث كانوا أطباء لهم في غالب الأحيان كابن بختشيوع، طبيب المنصور، وجبريل ابنه طبيب المأمون .

والحق أن هدى الإسلام في ترك الاستعانة بالمشركين لهو الحصن الحصين الذي يحمي الدول والمجتمعات الإسلامية من تلوث بيئتها بهذه السموم الفكرية، التي رأينا طرفاً من أثرها فيما سبق .

وبعد :

فقد أشرنا في المقدمة إلى هدفنا من هذا البحث، وما يتبعه من الكلام عن الفرق .

- فإنه حتى يظهر الحق فلابد أن يستبين الباطل (والضد يعرف بالضد) كما قيل ، فإذا جاء الحق زهق الباطل .

وطالما أن الباطل متخف متوار وراء شعارات وأسماء، فلن يكون الحق ناصعاً، إلا لمن عصم الله، وهو هدف أسمى .

- ثم إن إظهار عوار المبطلين وجهل الجاهلين وألاعيب المزيفين، لهو ظفر في حد ذاته لدين الله تعالى، وقد قال عز وجل { **وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** } [1] .

فاستبانة سبيل المجرمين هدف بذاته مطلوب بنص كتاب الله تعالى، وهو هدف أسمى .

ثم طلب النجاة لهولاء الشباب الذين خدعتهم الكلمات تارة، وانخدعوا بما ظنوه (علماً) تارة أخرى، سواء تلقفوه من فم كل مبدع أو جاهل ، أو استقوه بأنفسهم من الكتب، دون أن يتسلحوا بشرائط الفهم الصحيح، أو أن يلبسوا منظار الاتساع في الرؤية الشمولية للإسلام وللواقع على حد سواء. ولا ننكر أن من هؤلاء الشباب، وهم كثر، من هو مخلص متفان متعطش للفهم الصحيح والنظر الصائب والتوجيه المثمر، وهو هدف أسمى .

- ثم أن يكثر أهل السنة ، ويظهروا على أهل البدع والأهواء، وأن يكون (الإتباع) هو طريق المسلمين لا (الإبتداع) ، وأن يعرف الناس فضل أهل السنة على من سواهم ممن انتسب إلى الإسلام ، فبهذا وردت الآثار المستفيضة كما جاء عن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : { **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**}[2] فأما الذين ابيضت وجوههم، فأهل السنة والجماعة وأولوا

---

[1] الأنعام - 55
[2] آل عمران - 106

العلم، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلالة [1]. فان يكثر المنتسبون لهذا الخط المبارك ، خط السلف ، وأهل السنة والجماعة، لهو هدف اسمى.

- وان يكبت الله تعالى أهل البدع والضلالة ، ويحبسهم في قماقهم ، ويسود وجوههم في الدنيا قبل الأخرة ، ويظهر تلونهم في دين الله تعالى ، وجهلهم بكلامه تعالى وانحرافهم عن سنة نبيه صلى الله عليه وسلم لهو هدف أسمى.

وأننا لندعو الله تعالى مخلصين أن يجعل الحق هو هدفنا، وأن ينزع الهوى من نفوسنا لنرى الحق حقاً والباطل باطلاً .

{رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [2] .

اللهم رب جبرائيل وميكال وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .





[1] الأثر - 74 شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للحافظ اللالكائي - تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان ص 1 / 72

[2] آل عمران - 8

ثبت المصادر

الإمام أحمد : المسند

سيد قطب : في ظلال القرآن

خصائص التصور الإسلامي

ابن تيمية : مجموع الفتاوى

اقتضاء الصراط المستقيم

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

درء تعارض العقل والنقل

ابن خلدون : المقدمة

ابن كثير : تفسير القرآن العظيم

البداية والنهاية

ابن القيم : إغاثة اللهفان

أعلام الموقعين

الشاطبي : الموافقات

الاعتصام

الذهبي : المنتقى من منهاج الاعتدال

سير أعلام النبلاء

ابن حزم : الفصل في الملل والنحل

الشهرستاني : الملل والنحل

الطبري : تاريخ الرسل والملوك

اللالكائي : السنة - تحقبق أحمد سعد حمدان

القاسمي : محاسن التأويل

الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام

الغزالى : المستصفى في أصول الفقه

الجويني : غياث الأمم في التياث الظلم

ابن نجيم : الأشباه والنظائر

السيوطي : الأشباه والنظائر

ولي الدين الدهلوي : الفوز الكبير

محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق

عبد السلام هارون : تهذيب السيرة

أحمد أمين : فجر الإسلام

ضحى الإسلام

ظهر الإسلام

محمد أبو زهرة : أصول الفقه

جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم

عبد الرحمن بدوي : تاريخ التصوف

آدم متز : الحضارة الإسلامية

فهرست المواضيع

الموضوع

